



مؤسسة عبد العزيز سعود آل محمد الثقافية

ابن خلدون شاعراً

«السلطة والمثقف»

إعداد

ماجد الحكواتي

الكويت

2023

ردمك: 0 - 77 - 72 - 99906 - 978 ISBN

رقم الإيداع: 0261 - 2023

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (الباطنين العفان)

هاتف: + 965 22415172

فاكس: + 965 22455039

بريد إلكتروني: info@alabtaincf.org

تصميم الغلاف: محمد ناجي

صدرت هذه الطبعة بمناسبة إقامة الدورة الثامنة عشرة
دورة معجم الباطنين لشعراء العربية في عصر الدول والإمارات
مع احتفاء خاص بالشاعرين «ابن سناء الملك وابن مليك الحموي» 2023

الكويت 2023

التصدير

ابن خلدون، قامة كبيرة في تاريخ الفكر العربي، ولد ونشأ في تونس، وألمَّ بعلوم عصره ولكنه لم يركن - كما فعل أبوه - إلى المكان الذي نشأ فيه، وإلى إعادة عرض ما تلقاه على طلبته، قانعاً بحياة هادئة رخيّة، بل خاض في زلازل عصره، وتحولاته المتتابة، حين أراد أن يجربَّ حظّه في السياسة تنقل في أرجاء المغرب العربي من تونس إلى تلمسان إلى المغرب الأقصى، وجاوزه إلى الأندلس مرة ثم مرة أخرى، ثم حطَّ رحاله في مصر، ثم غادرها إلى بلاد الشام، ثم عاد إلى مصر حيث كان مقره الأخير.

خبر ابن خلدون السياسة في عصره خبرة واسعة، خبرة المراقب أحياناً، والمشارك في صنع تفاصيلها أحياناً أخرى، كان صديقاً لكثير من سلاطين عصره، وارتبط بكثير من حكام تونس وتلمسان والمغرب والأندلس ومصر، واتصل بالطاغية التتري تيمورلنك والتقى به في ظاهر دمشق ونال إعجابه.

وكانت له مكانة بارزة لدى هؤلاء الحكام يسعون إليه ويحضر مجالسهم نديماً ومشيراً، وكان أحياناً حاجباً لبعض أهل السلطة له كامل التصرف في أمور الدولة وشؤونها فعرف تقلبات السياسة، وقيام الدول وسقوطها، والصراع على السلطة بين أفراد العائلة الواحدة وبين النخب السياسية، كما عرف السجن ومرارته، والتشرد في البراري والتعرض لقطاع الطرق، وخرج

من هذه التجربة العنيفة والصاخبة بتاريخه الكبير الذي أرخ فيه للبشرية منذ أقدم عصورها، حتى أيامه هو، ولم يكتف بتسجيل الأحداث التي عاصرها، ونقل ما غاب عنه من مؤلفات من سبقه، بل قدم لتاريخه بمقدمة حاول فيها من خلال خبرته السياسية أن يحدد قوانين نشوء الدول وانهارها، كيف تقوم الدول ثم تنتامي قوتها ثم تبدأ بالانحدار حتى السقوط، هذه الدورة التي تمر بها جميع الدول في رأيه، والعوامل الكامنة وراء هذه الحركة السياسية الدائرية، واحتل بهذه المقدمة مكانه البارز في تاريخ الفكر الإنساني كمؤسس لعلم الاجتماع أو لعلم العمران.

ابن خلدون لم يقتصر نشاطه الذهني على كونه مؤرخاً وعالمًا اجتماعيًا، بل امتد نشاطه إلى ميدان الشعر فنظم بعض القصائد، ولم يكن الشعر الشاغل الرئيسي لابن خلدون بل كان نشاطاً جانبياً أُلجأته إليه قواعد التقرب من سلاطين عصره، إذ كان الشعر - كما في مجمل التاريخ العربي - الوسيلة المثلى لاحتلال مكانة لدى أصحاب الشأن، هكذا نظم ابن خلدون قصائد اقتصرت على مدح سلاطين عصره في الأندلس والمغرب وتونس ومصر، وإذا كان المثقف العربي قد ألمَّ بشيء قلَّ أو كثر عن مقدمة ابن خلدون فإن الاطلاع على الجانب الآخر من نشاطه الذهني وهو الشعر يكمل الصورة التي يجب أن ندركها عن هذا العلم الكبير.

ولقد كان موقف ابن خلدون من ملوك عصره مجالاً لانتقاد بعض الكتاب العرب المعاصرين فاعتبره عديد منهم سقوطاً أخلاقياً لهذا المفكر، ولكن هل نستطيع أن نحكم على سلوك أي علم من أعلام التاريخ القديم بمعاييرنا المعاصرة أم أن العدالة تقتضي أن نحكم عليه بمعايير عصره.

وفي هذا الكتاب محاولة لإطلاع القارئ على ما حفظته المصادر من شعر ابن خلدون، وهو ليس بالكثير، وفيه رصد لموقف معاصري ابن خلدون منه، وكيف نظر المفكرون العرب في العصر الحديث إلى علاقة ابن خلدون بحكام عصره.

وفيه أيضاً بيان لحجج الذين أدانوا ابن خلدون أخلاقياً وحجج الذين دافعوا عنه، ليكون القارئ على اطلاع على ما استند إليه الطرفان، وليكون بإدراكه حكماً على علاقة ابن خلدون بمتنفيذي عصره.

والله ولي التوفيق

عبدالعزیز سعود البابطين

الكويت في 21 جمادى الآخرة 1444 هـ

الموافق 14 يناير 2023 م

صورة ابن خلدون في مرآته

من حسن الحظ أن ابن خلدون قد كتب سيرته الذاتية بنفسه في ختام تاريخه الكبير وبتفصيل كبير، وهو من القلة من المؤلفين العرب الذين اهتموا برواية أحداث حياتهم، وظلت هذه السيرة هي المرجع الأساسي لمن كتب عنه، ولم يُضَف إليها إلا هوامش محدودة.

وهذه السيرة هي أقرب إلى أن تكون مجرد سرد للوقائع التي مرّت بابن خلدون أو عاينها دون أن نجد صدق هذه الأحداث في نفسه، وكأن فتح منافذ النفس واستبطن الهواجس الداخلية أمر لا يليق بالشخصيات النافذة في المجتمع، وهذا التحفظ الشديد نراه في عدة وقائع خطيرة مرت بابن خلدون لا شك أنها خلفت في نفسه الكثير من الصدى. ولكن لا نجد في كتابته عنها إلا رواية الواقعة، ولعل أخطر هذه الحوادث وآلمها ما وقع لأسرته بعد استدعائها من تونس إلى مصر إذ غرق المركب بمن فيه، وفقد ابن خلدون معظم أفراد أسرته وكتبه، واكتفى في تسجيل هذه الواقعة بعبارات قليلة، وكأنه يروي واقعة حدثت لشخص آخر «وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود، عظم المصاب والجزع»⁽¹⁾.

(1) التعريف بابن خلدون: 259.

في وعي ابن خلدون لنفسه في الصورة التي قدمها لذاته تقف في خلفية الصورة وعيه لمكانة عائلته سواء في موطنها الأصلي في حضرموت، في جدّه الأعلى وائل بن حجر الذي كان من أقبال اليمن ووفد إلى الرسول عليه السلام فدعا له ولذريته: «اللهم بارك في وائل بن حجر، ولده وولد ولده إلى يوم القيامة»⁽¹⁾.

أم لجدّه الأدنى خالد بن عثمان الذي وفد إلى الأندلس، واستقرت عائلته في أشبيلية وكان للعائلة مكانة مرموقة في السلطة وفي العلم كما سجل في ترجمته: «ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية»⁽²⁾؛ أم لجدّه القريب الحسن بن محمد الذي جاز الأندلس إلى أفريقية (تونس) حيث أكرمه الأمير أبوزكريا وأقطع له الإقطاع، أم لجدّه الأقرب محمد ابن خلدون فقد نظمه الأمير أبوحفص في جملة قواده واصطفاه لحجابته وبقيت له مكانته مع من تلا ذلك من الأمراء إلى أن اعتزل العمل الإداري، وجاء من بعده والد ابن خلدون الذي نزع عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط فقراً وتفقه، «وكان مقدماً في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه»⁽³⁾. وكان وعي ابن خلدون بماضي أسرته ومكانتها العلمية والسياسية من دوافع طموحه إلى أن يكون له دور بارز لدى حكام عصره.

ولد ابن خلدون في تونس سنة 732 هـ، ونشأ في جو علمي وقره له والده فأكب على ورود حياض العلم في تونس فالتقى بأبرز رجال العلم في

(1) التعريف بابن خلدون: 2.

(2) التعريف بابن خلدون: 5.

(3) التعريف بابن خلدون: 14.

ذلك العصر، حفظ القرآن الكريم بقراءاته المتعددة وألم بالحديث النبوي، وبالفقه وبالنحو، وأشار عليه إمام العربية بتونس محمد بن بحر بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم، وشعر حبيب الطائي، وطائفة من شعر المتنبّي، ومن أشعار كتاب الأغاني، ولازم مجلس إمام المحدثين بتونس محمد بن جابر القيسي وسمع عليه كتاب مسلم والموطأ وبعضاً من الأمهات الخمس، وأخذ الفقه عن جماعة، واستفاد ابن خلدون من جماعة من العلماء أتوا من المغرب مع أبي الحسن المريني عندما استولى على تونس، ومنهم إمام المحدثين والنحاة بالمغرب عبدالمهيمن الحضرمي، وشيخ العلوم العقلية إبراهيم الأبلي، وألم ابن خلدون وهو على شرفة العقد الثاني من عمره بعلوم عصره العربية والدينية والعقلية.

وتمكن وهو في مقتبل العمر أن يصدر أول مؤلفاته «لباب المحصل» وهو من كتب علم التوحيد: «أدرك بثاقب ذهنه زبدة «المحصل» على ما فيه من عسر وتعقيد، واستطاع أن يستخلصها على هذا النحو، إنه كان تمريناً عقلياً لطالب مجتهد⁽¹⁾».

كان أمام ابن خلدون وهو يكاد يختم مرحلة التعلم، لينطلق إلى مرحلة العمل في رحاب عصره نموذجان من عائلته الأقربين: جده محمد الذي مارس العمل السياسي وارتقى في درجاته إلى قمته: الحجابة لأحد أمراء الحفصيين، ووالده الذي قصر حياته على التعلم والتعليم، وكانت حياته المقبلة تردداً بين هذين القطبين.

(1) مؤلفات ابن خلدون: 7.

كان أول اختبار عملي لابن خلدون حين استدعاه ابن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة عن السلطان الحفصي أبي إسحاق فسارع إلى الاستجابة، وهو يعلل هذه الاستجابة لتحصيل غرضه وهو اللحاق بأساتذته في المغرب الذين جلوا عن تونس بعد انحسار الحكم المريني عنها، ولكن هذا التعليل لا يصمد للمناقشة إذ كان بإمكانه أن يعتذر عن هذا الطلب ويتوجه إلى المغرب، فطموح ابن خلدون كان يشدّه إلى رحاب السلطة، وكان عليه أن يرافق ابن تافراكين في توجهه لملاقاة الأمير أبو زيد الذي توجه بعساكره إلى تونس، وعندما التقى الجيشان حلت الهزيمة بابن تافراكين فتخلى ابن خلدون عنه وشقّ طريقه بين بلدان المغرب الأوسط منتقلاً من بلدة إلى أخرى.

في هذه الأثناء كان أبو عنان المريني قد استولى على بجاية وأصبح الحاكم الأقوى في المغرب، وذُكر له ابن خلدون فرغب في ضمّه إلى مجلسه ليزين به بلاطه كأحد العلماء البارزين فاستدعاه أبو عنان فلبى ابن خلدون الدعوة، وقدم عليه في فاس سنة 755 هـ بعد عامين من مغادرته تونس، وعلى قول ابن خلدون: «ونظمني في أهل مجلسه العلمي وألزمني شهود الصلوات معه ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي»⁽¹⁾، ونستشف من هذا القول أن هذا العمل الذي أسند إلى ابن خلدون لم يكن في تصوره يليق به وبأسلافه وكان يطمح إلى درجة أكبر في سلم السلطة المرينية، وتابع ابن خلدون في فاس لقاءه بالمشايخ من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين فزواج بين التعلم ومزاولة العمل الوظيفي في الدولة المرينية.

(1) التعريف بابن خلدون: 58 - 59.

ومن طبيعة أي نظام يستمد شرعيته من امتلاك القوة لا غير، أن يبقى الحاكم، القابع على رأس السلطة في قلق، ينظر بحذر وترقب وشك إلى كل المحيطين به وتصرفاتهم ويلقي بسمعه إلى الوشائيات والشائعات لأن القوة ليست ثابتة بل تتغير موازينها حسب الظروف وتبدلاتها.

يضاف إلى ذلك أن الحاشية المحيطة برأس السلطة يشيع بينهم التنافس والأثرة، ويسعى كل منهم ليكون أكثر قريباً من الحاكم وعلى حساب الآخرين، وثمره لهذا الجو المشحون أن صعود كثير من رجال السلطة يعقبه سقوط مريع، وكان أن ألقى بابن خلدون في السجن بتهمة اتصاله بالمنفي في فاس حاكم بجاية السابق الأمير محمد والتآمر معه لاستعادة ملكه في بجاية، ولبث ابن خلدون في السجن سنتين ولم يطلق سراحه إلا بعد وفاة أبي عنان إذ أطلقه الوزير الحسن بن عمر وأعادته إلى ما كان عليه سابقاً.

ثم يظهر في خضم الصراع على الإمارة الأمير أبوسالم أخو أبي عنان الذي كان منفيًا في الأندلس، ويتصل الأمير عن طريق ابن مرزوق بابن خلدون طالباً منه المساعدة، فيستجيب ابن خلدون للطلب ويسعى لدى رؤوس المرينيين لتأييد أبي سالم وانتهى الأمر إلى تولي أبي سالم السلطة في الدولة المرينية، وبعد أن حمل إليه ابن خلدون مع وفد من الوجهاء صحيفة المبايعه، يقر أبوسالم ابن خلدون على عمله ككاتب السر له، ثم يولييه بعد ذلك خطة المظالم، ولكن الوشائيات تتجدد من ابن مرزوق ضد ابن خلدون، ثم يتم عزل أبي سالم وتولية أحد أشقائه، ويشعر ابن خلدون أن طموحه إلى منصب أكبر في السلطة لم يتحقق فيعتزل العمل ويطلب من الوزير السماح له بالعودة إلى

بلده في تونس فيمنعه الوزير من ذلك ثم يسمح له بالسفر بعد أن يتوسط له وزير آخر فيأذن له بالسفر إلى أي بلد عدا تلمسان فاختر الذهاب إلى الأندلس، وهكذا غادر ابن خلدون المغرب بعد أن أقام فيه لمدة ثماني سنوات، وحلّ ابن خلدون في الأندلس عام 764هـ فاستقبل من سلطانها محمد بن يوسف بن الأحمر ومن وزيره لسان الدين ابن الخطيب استقبالاً حافلاً.

وأقطع السلطان ابن خلدون قرية البيرة القريبة من غرناطة، واختاره ليكون من أعضاء مجلسه دون أن يسند إليه عملاً معيناً وأمر السلطان باستحضار عائلة ابن خلدون لتكون إلى جانبه.

وأوفده في مهمة رسمية إلى ملك قشتالة بطره بن الهنشة لإتمام عقد الصلح فنجح ابن خلدون في مهمته، واغتبط الملك بابن خلدون وعرض عليه البقاء في أشبيلية وإعادة أملاك أسلافه إليه، ولكن ابن خلدون آثر العودة إلى غرناطة، وما لبث أن دبت الغيرة بصديقه ابن الخطيب من تقريب السلطان له، وفي هذه الأثناء ورد كتاب من الأمير أبي عبدالله محمد أنه استعاد ملك بجاية وطلب منه الحضور إليه، فأثر ابن خلدون مغادرة الأندلس بعد أن مكث فيه قرابة سنتين ونصف.

وتبدأ مرحلة جديدة في حياة ابن خلدون في المغرب الأوسط حيث كان المنطقة الأكثر اضطراباً، وكان الصراع مستمراً للهيمنة على هذه المنطقة خلال القرن الثامن الهجري من سلطتها المحلية بني عبدالواد بين سلطتين مجاورتين، وكان لابن خلدون سعي سابق لدى أبي سالم وكبار أهل مجلسه في إطلاق سراح أبي عبدالله محمد الأمير الحفصي، وتم له ذلك، وكتب الأمير

أبو عبدالله عهداً لابن خلدون بأن يسند إليه الحجابة إذا تمكن من العودة إلى حكم بجاية، واستقبل ابن خلدون بإكرام في بجاية، ووفى له الأمير بعهدته إذ ولّاه منصب الحجابة، وقدمه للخطابة بجامع القصبية بالإضافة إلى ممارسته التدريس في المسجد المذكور. ومضت سنة واحدة على هذه الحال، استفرغ فيها ابن خلدون جهده في تدبير أمور بجاية.

ثم حدثت فتنة بين أمير بجاية وبين ابن عمه أمير قسنطينة أدى إلى صدام بين الطرفين كانت الغلبة فيه لحاكم قسنطينة وقتل أبو عبدالله في هذه الحرب وأصبح أبو العباس هو الملك الجديد لبجاية، كيف سيكون موقف ابن خلدون من صديقه القديم، يقول ابن خلدون: «طلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر، والبيعة لبعض الصبيان من أولاد السلطان، فتفاديت من ذلك، وخرجت إلى السلطان أبي العباس فأكرمني وحياني، وأمكنته من بلده، وأجرى أحوالي كلها على معهودها⁽¹⁾» بعبارة قليلة انتقل ابن خلدون من معسكر إلى معسكر مضاد دون أن يقدم أي تبرير لهذا الموقف وكأنه أمر عادي لا يحتاج إلى تبرير، ولكن الأمر لم يطل مع السلطة الجديدة إذ «كثرت السعاية عنده فيّ، والتحذير من مكاني، وشعرت بذلك، فطلبت الإذن في الانصراف بعهد كان منه في ذلك فأذن لي بعد لأي⁽²⁾» توجه ابن خلدون إلى مدينة بسكرة بعد أن ترك بجاية ونزل عند شيخها أحمد مزني فأكرمه، وفي هذه الأثناء وصل خطاب من أبي حمو أمير تلمسان إلى ابن خلدون يطلب منه الالتحاق به على أن يوليه الحجابة، وكان أبو حمو بعد أن أصهر

(1) التعريف بابن خلدون: 99.

(2) التعريف بابن خلدون: 99.

إليه الأمير أبي عبدالله المقتول، قد امتعض مما حدث في بجاية وصمم على الاستيلاء عليها، وظن أن ابن خلدون بما له من معرفة بالقبائل وبأهل بجاية سيكون مساعداً له في هذه المهمة، ولم يتردد ابن خلدون في الانضمام إلى معسكر أبي حمو والعمل على نجاح خطته وعلى قوله: «فقيمت له في ذلك أحسن مقام، وشايعته أحسن مشايعة، وحملتهم على إجابة داعي السلطان، والبدار إلى خدمته، وانحرف كبراًؤهم عن خدمة السلطان أبي العباس إلى خدمته⁽¹⁾».

ولكن ابن خلدون لم يقبل المنصب الجديد، وأرسل أخاه يحيى لينوب عنه في ذلك وعلل هذا الامتناع: «نزعت عن غواية الرتب، وطال علي إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس⁽²⁾».

انتقل ابن خلدون بنفوذه إلى طرف آخر، والتحق بمعسكر أبي حمو القريب من بجاية، وأسهم في تأليب القبائل للوقوف معه، وفي هذه المعركة الدائرة بين المعسكرين لم ينعزل ابن خلدون كما قال سابقاً عن السياسة وعن أحوال الملوك ليتفرغ للعلم كما كان يرغب بل رمى بنفسه في هذا الصراع مؤيداً لأحد أطرافه، ولكن المعركة لم تحسم إذ جاء أبا حمو الخبر بأن سلطان المغرب عبدالعزيز عازم على النهوض إلى تلمسان، فآثر أبو حمو الانسحاب للدفاع عن تلمسان، وأدرك ابن خلدون بحسّه السياسي الثاقب أن أيام أبي حمو أصبحت معدودة فآثر الانسحاب وطلب الإذن من أبي حمو للانصراف

(1) التعريف بابن خلدون: 103 .

(2) التعريف بابن خلدون: 103 .

إلى الأندلس فأذن له، وانصرف ابن خلدون إلى مرسى هنين استعداداً للعبور إلى الأندلس وصدق حدس ابن خلدون إذ إن تلمسان سقطت بيد سلطان المغرب دون قتال، وفرّ أبوحمو إلى الصحراء.

وجاءت سرية من قبل سلطان المغرب فاحتجزت ابن خلدون بحثاً عن وديعة ظن سلطان المغرب أن ابن خلدون يحملها إلى سلطان الأندلس ثم أخذته إلى مقابلة سلطان المغرب الذي عنّفه على مفارقة المغرب فوجد ابن خلدون الحجة أن من أرغمه على مفارقتهم هو وزيره المستبد عليهم عمر بن عبدالله والذي انتهى الأمر به إلى القتل، وسأل سلطان المغرب ابن خلدون عن أمر بجاية لأنه كان ينوي الاستيلاء عليها فهوّن ابن خلدون عليه السبيل إلى ذلك فسّر السلطان فأقام ليلة في الاعتقال ثم أفرج عنه: «فعمدت إلى رباط الشيخ أبي مدين، ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم... لو تُركتُ له»⁽¹⁾.

وهذا الاستدراك يدل على أن ابن خلدون وكأنه كان يقاد إلى العمل في ظل السلطات القائمة في المغرب بغير رغبته، وكان يجد وضعه الطبيعي في رحاب العلم متعلماً ومعلماً. ولكن ما أن تستدعيه سلطة ما لم يكن يتأخر عن الإجابة، إذ لم يلبث ابن خلدون سوى فترة قصيرة في رباط أبي مدين وهو يمارس عمله المحبب إليه التدريس حتى استدعاه سلطان المغرب «فلم يسعني إلا إجابته»⁽²⁾ على حد قوله، فلم يكن هناك مجال للتردد أو التفكير أو الاعتذار. وبعد أن خلع عليه وأكرمه أوفده في مهمة لتأليب القبائل

(1) التعريف بابن خلدون: 134.

(2) التعريف بابن خلدون: 135.

للانقضاض على أبي حمو - مناصره السابق - فتطوع ابن خلدون لهذه المهمة وحمل القبائل على طاعة السلطان عبدالعزيز. وتمكن وزير سلطان المغرب من مهاجمة مخيم أبي حمو ورجاله واضطره إلى الهرب إلى الصحراء، ثم ارتحل ابن خلدون في وفد عظيم من قبيلة الدواودة إلى السلطان في تلمسان فأكرمهم ثم أعاد السلطان تكليف ابن خلدون في إخراج أبي حمو من بين بعض القبائل، فانطلق لذلك الغرض فأقام ببسكرة يعمل على تأليب القبائل ضد أبي حمو.

وحانت سنة 774 هـ حين استدعاه السلطان عبدالعزيز فارتحل بأهله متوجهاً إلى تلمسان وفي الطريق فجأه النبأ بوفاة السلطان وتصيب ابنه الطفل السعيد محمد بكفالة الوزير ابن غازي، فغيّر ابن خلدون اتجاهه، وقصد المغرب، عن طريق الصحراء، واعترضته في الطريق بعض القبائل بإيعاز من أبي حمو وانتهبوا جميع ما كان معه، وأقام بالمغرب مدة سنتين «نابه الرتبة عريض الجاه، منوّه المجلس عند السلطان»⁽¹⁾، ولم يُسند أي منصب حكومي لابن خلدون بل عكف على قراءة العلم وتدريسه، ولكن الأمور ما لبثت أن عادت إلى الاضطراب وقدم من الأندلس الأمير أحمد ابن أبي سالم وتمكن بعد مناوشات وتحالف مع الأمير عبدالرحمن أن يكون السلطان الجديد، ويادر ابن خلدون إلى «مباكرة أبواب السلطانين من غير نكير في ذلك، فكنت أباكرهما معاً»⁽²⁾ ولكن الوشائيات عادت من جديد ليجد ابن خلدون نفسه في المعتقل لليلة واحدة، ثم أفرج عنه، وأحسّ أن الجو المحيط

(1) التعريف بابن خلدون: 218.

(2) التعريف بابن خلدون: 224.

بالسلطة الجديدة لم يعد ملائماً له، فعزم إلى التوجه إلى الأندلس «بقصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم»⁽¹⁾.

وأقدمت السلطة الجديدة على اعتقال لسان الدين بن الخطيب بناء على طلب سلطان الأندلس، وحاول ابن خلدون التوسط له دون جدوى، ولجأ إلى بعض الوسطاء حتى سمح له بالسفر إلى الأندلس، وأجاز إلى الأندلس في ربيع سنة 776هـ.

واستقبله السلطان بالبر والكرامة على عادته، وحاول ابن خلدون إلحاق أهله به ولكن السلطة الجديدة في المغرب عارضت ذلك، وخاطبت سلطان الأندلس لإعادة ابن خلدون إلى المغرب، وحرّضت سلطان الأندلس على ابن خلدون بحجة أنه كان ساعياً في خلاص ابن الخطيب، فاستوحش سلطان الأندلس منه ووجد ابن خلدون نفسه في جو عدائي في الأندلس والمغرب.

ولم يطل مكوث ابن خلدون في الأندلس إذ إن سلطان الأندلس طلب إجازته إلى البر المغربي فنزل بهنين، في ظل السلطان أبي حمو الذي عاد إلى السلطة في تلمسان، وهو ما يزال يذكر ما فعله ابن خلدون في تحشيد القبائل ضده، فاستدعاه أبوحمو إلى تلمسان، ولحق به أهله من فاس وأقاموا معه، وأخذ في بث العلم، ورضي السلطان أن يستضيف خصمه السابق على أمل الاستفادة منه، فعرض عليه الحاجة إلى استئلاف قبائل الدواودة بما لابن خلدون من علاقات وثيقة بهم، وكلفه السفارة إليهم في هذا الغرض: «فاستوحشت منه ونكرته على نفسي لما أثرته من التخلي والانقطاع، وأجبتة إلى ذلك ظاهراً»⁽²⁾.

(1) التعريف بابن خلدون: 226.

(2) التعريف بابن خلدون: 228.

ولحق ابن خلدون بأحياء أولاد عريف فتلقوه بالترحيب وأقام بينهم وأحسنوا العذر إلى السلطان عنه في العجز عن قضاء خدمته واستجلبوا أهل ابن خلدون من تلمسان. وأنزلوه وأهله في قلعة ابن سلامة في صحراء المغرب الأوسط.

هنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة ابن خلدون، بعد ثلاث وعشرين سنة قضاهما ابن خلدون منتقلاً من المغرب الأدنى، إلى المغرب الأوسط، إلى المغرب الأقصى، إلى الأندلس، في بلاد لم تعرف الاستقرار إلا ريثما يتوفر طامع جديد في السلطة ينجح أو يفشل، من أعلى هرم في الإدارة إلى السجن، ومن خصم إلى خصم، من رحلات في البوادي واتصال بالقبائل وتعرض للسلب وحضور المعارك، من تقديم الاستشارات إلى مواجهة الشوك والشائعات، من كسب الصداقات، إلى خسارة الأصدقاء.

وكان قرار ابن خلدون بعد مرحلة طويلة من الصراع بين طموحه إلى الدرجات العُلا في السلطة، ورغبته في العلم والتعليم. وبعد أن رأى أن تعلقه بالسلطة لم يجلب له إلا التشرد والقلق والعداوات، قرر أن يهجر العمل في السياسة ويتفرغ إلى عمله المهيأ له وهو الارتهان للعلم وللعلم وحده.

أمضى ابن خلدون أربع سنوات في قلعة ابن سلامة إلى جوار عائلته متفرغاً لعمله الأساسي الذي أخلص له عمره وهو تاريخه الكبير، وكان لتجربته العملية ولقراءاته الكثيرة في ما وصل إليه من مؤلفات في التاريخ، والتأمل فيما رآه وشاهده، وفيما قرأه واطلع عليه، دول تقوم ثم لا تلبث أن تنهار، ومعارك تنشب تتجح أحياناً وتفشل أحياناً أخرى، ولم يكتف كالمؤرخين

الأخرين في حصر كتابته بتسجيل ما حدث وما يحدث من تداول مستمر للسلطة بل أراد أن يصل إلى السرّ في هذا التبدل في الصعود ثم الركود ثم الانهيار، وهداه تفكيره في هذه الخلوة إلى القوانين التي تحكم قيام الدول وانهيارها وأتيح له خلال عدة أشهر من أن ينجز مقدمة تاريخه، هذه المقدمة التي غطت على الكتاب الأصلي وأصبح ابن خلدون بفضلها مؤسساً لعلم جديد سواء سمي علم الاجتماع، أم علم العمران أم مزيج من السياسة وفلسفة التاريخ.

وبعد أن أمضى ابن خلدون أربع سنوات في هذه القلعة منعزلاً منشغلاً بإتمام عمله التاريخي الكبير وجد أن إكمال العمل يقتضي الاطلاع على الكثير من المصادر التي لا تتوفر إلا في الحواضر الكبيرة، فعزم على العودة إلى بلد المنشأ تونس، وبعث برسالة إلى سلطان تونس يستأذنه بالعودة إلى بلده، فأذن له فانتقل ابن خلدون إلى تونس بعد أن التقى بالسلطان في بلاد الجريد فرحب بقدمه، «وأوعز إلى نائبه بها مولاه فارح بتهيئة المنزل، والكفاية في الجراية، والعلوفة، وجزيل الإحسان فرجعت إلى تونس في شعبان من السنة (780 هـ) وآويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت عن الأهل والولد، وجمعت شملهم»⁽¹⁾.

وفي تونس استندى السلطان ابن خلدون إلى مجلسه، فاشتعلت الغيرة في بطانته وعلى رأسهم المفتي ابن عرفة واشتدت الوشايات، وابن خلدون يُقسّم وقته بين تدريس طلبة العلم، وإكمال عمله التاريخي، وتمكن ابن خلدون

(1) التعريف بابن خلدون: 231.

من إنجاز النسخة الأولى من تاريخه ورفعها إلى السلطان، واستصبح السلطان ابن خلدون في إحدى مهماته خارج تونس، ثم أراد أن يستصحبه في مهمة ثانية فاعتذر ابن خلدون واستأذن السلطان في السفر إلى مصر لأداء فريضة الحج فأذن له.

وبعد رحلة في البحر وصل ابن خلدون إلى مصر، ودخل القاهرة في ذي القعدة من عام 784 هـ فدهش لما رآه، وعلى وصفه كانت القاهرة «حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم»⁽¹⁾، واتصل بسلطان مصر الملك الظاهر برفوق: «فأبر اللقاء، وأنس الغربية، ووقّر الجراية»⁽²⁾ من صدقاته» وانتظر لحاق أهله به من تونس وقد صدّهم سلطان تونس عن السفر اغتياً بعودة ابن خلدون إليه، فطلب من سلطان مصر الشفاعة إليه، فخاطب سلطان مصر برسالة طالباً السماح بسفر عائلة ابن خلدون، فتمت الموافقة على ذلك، وكانت الفاجعة أن غرقت السفينة التي أقلتهم، وفقد ابن خلدون الأهل جميعهم وما جلبوه معهم من كتبه وتراثه.

جلس ابن خلدون حال وصوله إلى القاهرة للتدريس في الجامع الأزهر ثم عرض عليه التدريس بمدرسة القمحية فتولى التدريس بها، ولكن أخطر المناصب التي تولّاها ابن خلدون كانت في القضاء إذ اختصه السلطان بمنصب قضاء المالكية لأول مرة سنة 786 هـ بعد أن سخط على قاضي المالكية فعزله، وكان منصب القضاء مما يكثر التنافس عليه لما فيه من مزايا معنوية ومادية، وفي الرواية العائدة لابن خلدون كان الفساد ضارباً أطنابه في

(1) التعريف بابن خلدون: 246.

(2) التعريف بابن خلدون: 249.

هذه المهنة من خلال فساد الشهود والمفتين، حيث يتم التلاعب وفق المصلحة بالشهادات، وبالإفتاء، وتمكن هؤلاء من التمتع بقسط كبير من النفوذ من خلال تلبيتهم لمطالب المتنفذين وإن كانت غير محقة، فساد الظلم وانتهت الحقوق، ويقول ابن خلدون إنه سعى للتصدي لهؤلاء المفسدين، وإعلاء كلمة الحق، فكانت العاقبة أنهم تألبوا ضده، وأكثروا من الشائعات والسعيات للتخلص منه، فما كان من السلطان إلا أن استجاب لهم وأخلى المهمة من ابن خلدون وأعادها إلى القاضي السابق، ولم يمكث ابن خلدون في هذا المنصب إلا قرابة سنة من الزمن، ولبث بعد العزل ثلاث سنين مكثفياً بالتدريس إلى أن عزم على قضاء فريضة الحج سنة 789هـ.

وبعد قضاء الفريضة لزم ابن خلدون: «كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح سبع وتسعين»⁽¹⁾ وبعد عودته من الحج أسند إليه التدريس في المدرسة التي أنشأها السلطان برقوق وهي المدرسة الظاهرية، ثم كلف بتدريس الحديث في مدرسة صلغتمش، وتولى الإشراف على خانقاه بيبرس لمدة سنة تقريباً، ثم عزل عنها بعد أن امتعض السلطان برقوق من موقف ابن خلدون بتأييد الثوار على برقوق والإفتاء لهم بجواز محاربتهم، ثم تولى القضاء للمرة الثانية في شهر رمضان من سنة 801 هـ إذ اتفقت وفاة قاضي المالكية فبحث السلطان عن ابن خلدون وقلده قضاء المالكية وكالعادة كان هناك من يطمع في هذا المنصب ويبدل ما يستطيع من المال لرشوة أصحاب الأمر، وفي منتصف المحرم سنة 803 هـ، عزل ابن خلدون من منصبه ليتولاه القاضي السابق فعاد ابن خلدون

(1) التعريف بابن خلدون: 278.

إلى تدريس العلم وتأليفه، وفي هذه الأثناء كان تيمور لنك قد اجتاح بجيوشه بلاد الشام والعراق «ووقع فيها من العبث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم ما لم يعهد الناس مثله⁽¹⁾».

فتجهز السلطان فرج بن برقوق للمدافعة عن الشام وخرج في عساكره قاصداً الشام، واستدعي ابن خلدون لمرافقة الحملة فتجافى عن ذلك، ثم وافق على اصطحاب الحملة، وسافرت الحملة منتصف شهر المولد الكريم سنة 803 هـ. ووصلت الحملة إلى دمشق، وحدثت بعض المناوشات مع جيش المغول، ثم نمي الخبر إلى السلطان فرج أن بعض الأمراء يحاول الاستيلاء على السلطة في مصر، فأجمع الرأي على العودة إلى مصر، وأصبح أهل دمشق في حيرة بعد أن تخلى عنهم سلطان مصر.

وكان أن اجتمع القضاة والفقهاء في المدرسة العادلية بدمشق واتفق رأيهم على طلب الأمان من تيمور ورفض نائب القلعة ذلك، وخرج القاضي برهان الدين الحنبلي ومعه شيخ الفقهاء إلى تيمور فأجابهم إلى التأمين وردهم إلى استدعاء الوجوه والقضاة فخرجوا إليه، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان واتفقوا على فتح مدينة دمشق من الغد، على أن يدخل أمير مغولي وينزل بمحل الإمارة منها، ويملك أمر المدينة.

وبلغ الخبر ابن خلدون في جوف الليل أن تيمور سأل وفد القضاة عنه وهل سافر مع عساكر مصر؟ فأحس بالقلق، وبخاصة بعد أن ثار أهل دمشق على الوفد المفاوض ورفضوا ما توصلوا إليه، خوفاً من أن ينسب ذلك الرفض

(1) التعريف بابن خلدون: 365.

إليه فعزم في اليوم التالي الخروج إلى تيمور فأبى القضاة أولاً ثم سمحوا له بالتدلي من السور ووجد عند الباب نائب تيمور الذي عينه لولاية دمشق فأرسله مع مرافقين إلى خيمة تيمور.

ما الذي دفع ابن خلدون للاستعجال في مقابلة تيمور حال سماعه خبر السؤال عنه، لم يكن اللقاء طلباً للأمان لسكان دمشق فهذا الطلب أنجزه وفد القضاة في مرة سابقة، وإن كان تيمور لم يلتزم بتعهد بل أباح دمشق لجنوده لينهبوا ويغتصبوا ويحرقوا كل ما صادفوه أمامهم، ولم يكن ابن خلدون يطمع في أن يكون أحد مستشاري تيمور إذ إن ابن قاضي شهبه في تاريخه عرض للقاء ابن خلدون بتيمور وأورد بعض تفاصيل لم يوردها ابن خلدون في ترجمته الذاتية، ونقلاً عن أحد حضور هذا اللقاء فإن تيمور طلب من ابن خلدون إن يتهيأ للذهاب معه إلى بلاده ولكن ابن خلدون تخلص من هذا الطلب بمداورة ذكية إذ أوهمه أنه يرغب في الذهاب إلى مصر ليهيئ له أمر استقباله وليكون في خدمته عندما يخطر له أن يتوجه إلى مصر.

ويشير ابن خلدون في ترجمته الذاتية مرتين إلى ما داخله من وجل وخوف حين عزم على لقاء تيمور: مرّة عندما بلغه خبر سؤال تيمور عنه: «وبلغني الخبر من جوف الليل فخشيت البادرة على نفسي»⁽¹⁾ والمرة الثانية: «وقد غلبني الوجل بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية صدرالدين المناوي، أسره التابعون لعسكر مصر بشقحب، وردّوه، فحُبس عندهم في طلب الفدية منه، فأصابنا من ذلك وجل»⁽²⁾. هل خاف ابن خلدون من انتقام

(1) التعريف بابن خلدون: 368.

(2) التعريف بابن خلدون: 370-371.

تيمور إذا لم يسارع إلى لقائه، أم هل كان يخاف أن يقع فيما وقع فيه قاضي الشافعية فيصبح أسيراً طلباً للفدية.

كان موقف ابن خلدون في اللقاء موقف الضعيف أمام مالك القوة المطلقة، فقد أوماً ابن خلدون عند اللقاء إيماءة الخضوع، ثم قبّل يد تيمور، وقدم له مجموعة من الهدايا، وبعد أن أجاب على استفسارات تيمور المتعلقة بشخصه وبالتعرف إلى المغرب، «وقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفاوضه في شيء⁽¹⁾ من ذلك يستريح إليه ويأنس به مني» فقال له: «أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك، فقال لي الترجمان.. وما سبب ذلك» فقلت: أمران:

الأول: أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك⁽²⁾.

والأمر الثاني: ما كنت أسمعه من أهل الحدثان بالمغرب والأولياء⁽³⁾ من أخبار تنبئ بظهور تيمور وبهذه المبالغة والأقوال المزورة، كما ينعتها ابن خلدون، استطاع ابن خلدون أن يرضي غرور تيمور ويحظى بإعجابه، ولبي طلب تيمور منه بإعداد وصف لبلاد المغرب.

وطلب ابن خلدون من تيمور إعطاء الأمان لمن خلفه سلطان مصر وراءه من القراء والعمال والموقعين، فتمت الموافقة على ذلك، ويبقى هنا سؤال معلق هل كان ابن خلدون معجباً بتيمور، فبناء على نظريته أن الملك يكون بالعصبية،

(1) التعريف بابن خلدون: 372.

(2) التعريف بابن خلدون: 372.

(3) التعريف بابن خلدون: 372.

وأن الترك، كما وصفهم ابن خلدون «لا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض، من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر»⁽¹⁾ وكتاب ابن خلدون إلى سلطان المغرب بعد عودته إلى مصر يروي مقابله لتيemor، ويصف هذا الرجل بأنه «شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم»⁽²⁾.

وهذا المديح المبالغ فيه لتيemor هل كان من نوع مراعاة الضعيف أمام جبروت القوي ليحظى بالسلام أم أنه كان عن قناعة وإعجاب؟⁽³⁾ وبعد أن أمضى ابن خلدون «خمسًا وثلاثين يومًا أبكره وأراوحوه، ثم صرفني وودّعني على أحسن حال»⁽⁴⁾.

نال ابن خلدون الإذن بالسفر وتوجه إلى مصر بعد أن أمضى قرابة ثلاثة أشهر في دمشق، ودخل في شهر شعبان سنة ثلاث وثمانمئة من الهجرة ولم يلبث إلا قليلاً حتى أسند إليه القضاء للمرة الثالثة، وكالعادة بدأ الطامعون في المنصب عملهم في الوشاية والرشوة ووصل الساعي إلى غايته في أواخر رجب سنة 804 هـ. ومن هذا التاريخ يعاد ابن خلدون إلى القضاء ثم سحب المنصب منه مرتين فتصبح عدد المرات التي أسند إليه القضاء فيها خمس مرات، وينهي ابن خلدون ترجمته لنفسه في أواخر ذي القعدة سنة 807 هـ وقد جرد من منصب القضاء وذلك قبل وفاته ببضعة أشهر..

(1) التعريف بابن خلدون: 372.

(2) التعريف بابن خلدون: 382.

(3) يؤكد د.عبدالسلام العجيلي «أن تلك الأقوال صدرت عن قناعة تامة أو شبه تامة»، أعمال الملتقى

الدولي الأول لابن خلدون: 23.

(4) التعريف بابن خلدون: 381.

ولكن ابن خلدون أعيد إلى القضاء مرة أخرى قبل وفاته بثلاثة أيام وتوفي وهو في منصب القضاء⁽¹⁾.

هذه هي الصورة التي رسمها ابن خلدون لسيرته في العلم والسياسة والقضاء، صورة مفصلة موسعة وصريحة، لم يحاول أن يخفي شيئاً مما مارسه أو شاهده أو عاصره، كان بعقلية المؤرخ يدون ما وقع بكل واقعية مع أن بعض ما دونه كان مادة لمعارضية للتشهير به، ولمويديه للإشادة به والدفاع عنه، فكيف نظر معاصروه ومن جاء بعدهم إلى هذه الصورة الشخصية.

(1) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: نقلاً عن «مؤلفات ابن خلدون»: 288.

صورة ابن خلدون في مرآة الآخرين

اعتمد معاصرو ابن خلدون في تراجمهم له بشكل أساسي على ما كتبه ابن خلدون في ترجمته الذاتية ولا نجد أي إضافة جوهريّة في مفردات الترجمة فيمن كتب عن ابن خلدون ممن عاصره عدا إضافات بسيطة نجدها في بعض المصادر، يروي ابن قاضي شعبة بتاريخه معلومات لم ترد في الترجمة الذاتية عن مقابلة ابن خلدون لتيّمور وقد نقلت هذه المعلومات عن شاهد عيان وأبرز ما فيها أن تيّمور عرض على ابن خلدون اصطحابه معه ولكن ابن خلدون تخلص من هذا العرض بطريقة ذكية، وأن ابن خلدون عرض على تيّمور ترجمة له استقاها من الثقات وسرد عليه فتوحاته وأحواله وابتداء أمره ومناماً رآه والده له فأعجبه ذلك كثيراً⁽¹⁾، وفي عجائب المقدور لابن عريشاه يورد المؤلف أن تيّمور لما رأى شكل ابن خلدون لشكلهم مبيئاً قال: «هذا الرجل ليس من ها هنا»⁽²⁾.

وأورد تقي الدين المقرئ في كتابه «درر العقود الفريدة»، وكان تلميذاً لابن خلدون، بعض العجائب والغرائب التي رواها له ابن خلدون من مشاهداته أو مما سمعه⁽³⁾.

(1) تاريخ ابن قاضي شعبة: 182/4.

(2) عجائب المقدور في نوائب تيّمور: 254.

(3) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: 404-410.

ولعل أبرز المعاصرين ومن كان له علاقة مباشرة مع ابن خلدون ومراسلات ولقاءات عديدة كان لسان الدين ابن الخطيب وقد ترجم له في الإحاطة «في تاريخ غرناطة»، وفي هذه الترجمة إطراء كبير لابن خلدون، يلحظ في النعوت الكثيرة التي يلحقها بابن خلدون: «هذا الرجل الفاضل حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس خاصي الزي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرئاسة»⁽¹⁾ ويلخص رأيه بابن خلدون في عبارة مركزة: «مفخرة من مفاخر التخوم المغربية»⁽²⁾ ومن أبرز هذه الصفات طموحه لقنن الرياسة وهي خصلة يلحظها مؤرخ آخر جاء بعد ابن خلدون وهو ابن تغري بردي إذ يقول عنه: «رحمه الله ما كان أحبه في المنصب»⁽³⁾.

والمؤرخ الآخر المعاصر لابن خلدون وممن خالطه إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر فقد أورد له ترجمة في كتابه «نثير الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان» وفي هذه الترجمة أشاد بخبرة ابن خلدون العلمية بل ارتفع به إلى مرتبة عالية: «كاد أن يصل بها إلى درجة الاجتهاد غاية الوصول»⁽⁴⁾.

وممن وقف مدافعاً عن ابن خلدون تلميذه تقي الدين المقرئ الذي أشاد بابن خلدون إشادة عالية: «هو النخبة التي قل أن يأتي بمثلها الدهر،

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة: 497/3-498.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة: 498/3.

(3) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ابن تغري بردي، 209/7.

(4) نثير الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان: 298.

والتاج الذي علا قمم رؤساء العصر بما انطوى عليه من غزير المعارف والعلوم.. واشتمل عليه من الخلق الكريم» وأرجع ما ألصق به من تهم إلى الحسد «إلا أنه لكثرة فضله، وعظيم سيادته ونبله، لم يعدم قط عدوًّا ولا حاسدًا⁽¹⁾.

في الطرف المقابل فإن هناك من المعاصرين لابن خلدون من وجه انتقادات عديدة لسلوكه، وعلى رأس هؤلاء ابن حجر العسقلاني، وهو ممن تتلمذ على ابن خلدون وحضر بعض دروسه، وحصل على إجازة منه، ففي كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر» يقدم ابن حجر ترجمة مطولة لابن خلدون، والملاحظ في هذه الترجمة أن ابن حجر يمر مرورًا سريعًا بالمرحلة المغاربية في حياة ابن خلدون، ويقف ابن حجر عند المرحلة المصرية من سيرة ابن خلدون وبخاصة مسلكه في القضاء، ويحشد عددًا من الانتقادات، منها ما نقله عن مجابيلين لابن خلدون، ومنها ما لاحظته بنفسه، فهو ينقل عن كتاب «القضاة» لجمال الدين البشبيشي: «إذا ولي [القضاء] فلا يعاشر بل ينبغي ألا يرى⁽²⁾» و«أكثر من الازدراء بالناس⁽³⁾».

ولم يكتف جمال الدين البشبيشي بما أخذه على سلوك ابن خلدون في القضاء بل أخذ عليه الترخص في سلوكه العام: «تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات، ومعاشرة الأحداث، وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط فكثرت الشناعة عليه⁽⁴⁾».

(1) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: 387.

(2) رفع الإصر عن قضاة مصر: 234.

(3) رفع الإصر عن قضاة مصر: 236.

(4) رفع الإصر عن قضاة مصر: 236.

وينقل عن ابن عرفة التونسي لما بلغه تولية ابن خلدون منصب القضاء: «كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء عددناها بالضدّ من ذلك»⁽¹⁾

ونقل ابن حجر عن محمد الركراكي قوله عن ابن خلدون: «عَرِيٌّ عن العلوم الشرعية، له معرفة في العلوم العقلية من غير تقدم فيها»⁽²⁾ وذكر ابن حجر أن شيخه أبا الحسن الهيثمي كان يكثر في الغضّ من ابن خلدون ولما سأله عن سبب ذلك قال إنه بلغه أنه ذكر الحسين في تاريخه فقال: «قتل بسيف جدّه»⁽³⁾.

هذه المآخذ التي نقلها ابن حجر أضاف إليها ما اعتبره مأخذاً رئيساً وهو تنكره لجميل أهل مصر عليه: «ولما دخل الديار المصرية تلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد إليه فلما ولي المنصب تنكر لهم وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود»⁽⁴⁾ ويضيف إلى ذلك: «لم يلبس زي قضاة هذه البلاد، وكان يحب المخالفة في كل شيء»⁽⁵⁾ ويمكن أن نعد الانتقادات التي وردت من البشبيشي والركراكي وابن عرفة من نوع ما يحدث بين المتنافسين من جيل واحد وخاصة أن منصب القضاء كان من المناصب التي يكثر التزاحم حولها، وللمتزاحمين في سبيل الوصول إلى غايتهم أن يختلقوا كل المساوئ لخصومهم.

-
- (1) رفع الإصر عن قضاة مصر: 235.
 - (2) رفع الإصر عن قضاة مصر: 234.
 - (3) رفع الإصر عن قضاة مصر: 237.
 - (4) رفع الإصر عن قضاة مصر: 235.
 - (5) رفع الإصر عن قضاة مصر: 235.

وعلى الرغم من الحدة في هذه الانتقادات فإن الجميع يعترف لابن خلدون بمكانة مميزة، وبفضائله. فابن حجر يبرئ ابن خلدون من كثير من الأقاويل التي دارت حوله: «وادعوا عليه بأمر كثيرة أكثرها لا حقيقة له»⁽¹⁾ والبشبيشي يعترف لابن خلدون بأنه .. «لم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة»⁽²⁾ والركراكي يقول عنه: «محاضرتة إليها المنتهى»⁽³⁾ وهذه التهم إذا صرفنا النظر عن نزعة التافس وما تؤدي إليه من تداعيات فإنها تهم لها وجه آخر ويمكن الرد عليها ببسر.

وممن أورد بعض النقد لابن خلدون من معاصريه بدرالدين العيني، وقد اكتفى العيني في ترجمته لابن خلدون أن ختمها بقوله: «كان يتهم بأمر قبيحة، سامحه الله تعالى»⁽⁴⁾ ولم يفصح عن هذه الأمور القبيحة. وإذا كان مجاليو ابن خلدون قد تمايزوا بين من أشاد به إشادة مطلقة، ومن سجّل عليه بعض المآخذ ولكنه اعترف له بالصيانة والمهارة، فإن كتاب العصر الحديث لهم موقف مختلف من سيرة ابن خلدون، فهم لم يقفوا عند المآخذ التي أشار إليها بعض معاصري ابن خلدون، إما لأنها لاقيمة لها، أو لأن أثرها محدود، ولم يقتصروا على النظر إلى المرحلة المصرية فقط بل عاينوا سيرة ابن خلدون على امتدادها، وكان المحور الأساسي الذي شد انتباههم هو موقف ابن خلدون من حكام عصره أي سلوكه السياسي، لا سلوكه في القضاء.

من أوائل من وجه المطاعن إلى موقف ابن خلدون السياسي هو طه حسين فقد عده صاحب: «أطماع لا حد لها كانت جميع الوسائل لتحقيقها

(1) رفع الإصر عن قضاة مصر: 235.

(2) رفع الإصر عن قضاة مصر: 236.

(3) رفع الإصر عن قضاة مصر: 235.

(4) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، نقلًا عن كتاب «مؤلفات ابن خلدون»: 288..

مشروعة⁽¹⁾ وفي سبيل تحقيق هذه المطامح: «أقدم بلا وازع على خيانة سادته غير مرة.. مضحياً بالدين والأخلاق في سبيل أطماعه»⁽²⁾ وهي اتهامات خطيرة تجرد ابن خلدون من الحس الأخلاقي، ومن الوازع الديني، ولم يكتف طه حسين بذلك بل جرّد ابن خلدون من فضيلة الارتباط بالوطن وبالأسرة: «الظاهر أنه لم يعرف وطناً ولا أسرة، فالوطن في نظره هو حيث استطاع العيش في رغد واعتبار»⁽³⁾ كما حاول طه حسين أن يشكك في نزاهة ابن خلدون العلمية حين نفى أن يكون ابن خلدون قد عرف من كتاب الأغاني سوى الاسم⁽⁴⁾ وعلى الرغم من هذه الاتهامات الخطيرة التي جردت ابن خلدون من معظم الفضائل الإنسانية، أقر طه حسين بعظمة ابن خلدون، وأرجع هذه الانحرافات إلى بوادر ضعف إنسانية: «من السخف أن تتمسك ببوادر ضعف إنسانية جداً لتتوصل بذلك إلى أن نتقص من فضل شخصية لا ريب في عظمتها»⁽⁵⁾.

وأيد سلامة موسى اتهامات طه حسين لابن خلدون في مقال نشره بعنوان: «ابن خلدون والعرب» في كتابه «مقالات ممنوعة» فأكد على صفة الغدر والخيانة في تعامله مع ملوك عصره وقياداته، ولم يكتف بذلك بل مدّ هذه الخصلة السيئة من المجال السياسي إلى المجال الثقافي: «إني أحتفظ له بخيانات شخصية وثقافية، فإنه مثلاً خان معظم الأمراء والملوك الذين خدمهم ثم إنه سرق كل ما كتبه إخوان الصفاء وعزاه لنفسه»⁽⁶⁾. وهذا الاتهام

(1) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: 28

(2) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: 28-29.

(3) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: 29

(4) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: 15

(5) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: 30.

(6) مقالات ممنوعة: 72.

الخطير لابن خلدون لم يمنع سلامة من الاعتراف بأن ابن خلدون «عقل كبير في التحليل والتأليف»⁽¹⁾ ولقيت هذه الاتهامات تأييداً واسعاً لدى عدد كبير من المؤلفين في العصر الحديث، منهم على سبيل المثال: علي عبدالواحد وافي، في كتابه الذي خصصه لابن خلدون فعد صفة الغدر لدى ابن خلدون عادة مستحكمة تتكرر في تعامله مع مختلف القيادات السياسية فهو أبداً مع القوي، مع المنتصر: «انقلب ابن خلدون على الوزير الحسن بن عمر ناسياً فضله عليه، إذ أطلقه من الأسر وشمله بإحسانه ورعايته، وأخذ يتقرب إلى السلطان الجديد، ولم يلبث أن غدر به كما غدر بأبي عنان وبالوزير الحسن بن عمر من قبل»⁽²⁾.

ويضيف «بعد الانقلاب على السلطان أبي سالم» بادر ابن خلدون بعاداته مع كل متغلب ظاهر إلى الانضواء تحت لواء الوزير عمر بن عبدالله»⁽³⁾.

وتبلغ هذه الاتهامات مدى أبعد لدى عالم الاجتماع العراقي علي الوردي، فبعد أن يصف ابن خلدون بالانتهازية يمد هذا الاتهام إلى نظريته الاجتماعية أيضاً: «عيب ابن خلدون الأكبر أنه كان انتهازياً في سلوكه الشخصي وفي نظريته الاجتماعية.. ويخيل إليّ أنه جاء بنظريته الاجتماعية لكي يدافع بها عن سلوكه الشخصي»⁽⁴⁾.

ويعترف علي الوردي لابن خلدون بالعظمة الفكرية ولكنه يصف سلوكه بالانحطاط: «فالرجل كان ذا تفكير عظيم بمقدار ما كان ذا سلوك منحط»⁽⁵⁾.

(1) مقالات ممنوعة: 71

(2) عبدالرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته: 50.

(3) المصدر السابق: 53.

(4) أعمال مهرجان ابن خلدون: 519.

(5) منطلق ابن خلدون في ضوء حياته وشخصيته: 248-249.

ويذكر أنه: «كان يحب الجاه والمنصب حباً جمّاً وهو لا يبالي أن يدوس على جميع المبادئ الخلقية في سبيلهما .. كان في هذه الناحية مصاباً بعقدة نفسية»⁽¹⁾.

وإدانة سلوك ابن خلدون السياسي وجد صدها لدى أكثر الباحثين المعاصرين، وهذا ما يشير إليه علي الورددي: «لم تكن تخلو [حياته] من خلق الغدر والنفاق والانتهازية، وهذا أمر يكاد أكثر الباحثين يتفقون عليه»⁽²⁾.

وأمام هذه الإدانة الواسعة التي طالت تصرفات ابن خلدون السياسية حاول بعض الباحثين المعاصرين الدفاع عن هذا السلوك ويقف على رأس هؤلاء المدافعين ساطع الحصري وكانت حجته الرئيسية في وجه الإدانة الصارمة لأخلاقيات ابن خلدون: «إن قياس أخلاق رجال القرون الماضية.. بمقاييسنا الحالية لا يتفق مع مقتضيات البحث العلمي»⁽³⁾ وأنه: «ما كان في استطاعة أي كاتب [في ذلك العهد] أن يعيش من غير أن يتظلل برعاية من أحد من رجال الجاه والنفوذ»⁽⁴⁾ ورد على اتهام ابن خلدون بالتجرد من الشعور الوطني بأن «تلك البيئات ما كانت تساعد على تكوين شعور قومي ووطني»⁽⁵⁾، وأشار أحمد توفيق المدني في دفاعه عن ابن خلدون إلى فكرة هامة وهي أن ابن خلدون «كان يعامل على السواء كل الأمراء والملوك»⁽⁶⁾

بعد هذا العرض الموسع لصورة ابن خلدون كما رسمها لنفسه، وكما تصورها معاصروه والمحدثون من الكتّاب نتساءل أين تكمن الحقيقة في هذا التضارب والاختلاف في التفسير والحكم؟

(1) المرجع السابق: 229.

(2) المرجع السابق: 229.

(3) دراسات عن مقدمة ابن خلدون: 578.

(4) دراسات عن مقدمة ابن خلدون: 581.

(5) دراسات عن مقدمة ابن خلدون: 581.

(6) أعمال مهرجان ابن خلدون: 542.

في البدء فإن مادة سيرة ابن خلدون هي من صنع ابن خلدون نفسه ولم يضيف إليها من جاء بعده إلا أشياء محدودة ليس لها أي تأثير في التقييم.

دوّن ابن خلدون بنزاهة المؤرخ كل تفاصيل حياته العلمية والسياسية والقضائية، لم يحاول أن يخفي حتى ما استخدمه أعداؤه لنقض صورته وتشويهها، لم يخف أنه كان ينتقل بسهولة عجيبة من الضد إلى الضد دون أن يشعر بالحرَج لهذا التناقض في السلوك، كان يتخلى عن ساعده وأحسن إليه ويقف مع عدوه دون أن يساوره ندم أو أسف، كان طامحًا كآسلافه بعد أن اشتهر بعلمه أن يكون له حظ من التآلق إلى جانب سلاطين عصره، ولكنه لم يحظ إلا بأدوار لم يجد فيها ما يليق باسمه والمرة الوحيدة التي وجد فيها ما تطمح إليه نفسه عندما أسندت إليه الحجابة في بجاية وأصبح هو المتصرف في أمورها، ولكن ذلك لم يدم إلا سنة واحدة، ثم وجد نفسه يبيع الأمير الجديد لبجاية وهو يقف على جثة صديقه القديم.

كان ابن خلدون يدرك تمام الإدراك أن في ميدان السياسة لا وجود للعواطف والمشاعر، ولا وجود للتقييم والمبادئ، القوة الخشنة هي تتكلم وهي التي يصغي لها الناس، وكان يدرك أنه لا يملك قسطًا من هذه القوة وأن عليه أن يسير في ظلال هذه القوة المنتصرة دائمًا، يتخلى عن الخاسر، ويلتحق بالفائز ولو كان الخاسر أصدق أصدقائه.

وكان على المقيم في جوار السلطة العليا أن يكون حذرًا إلى أقصى الحدود، فهو محاط بدسائس الحاشية وبشكوك السلطان الدائمة، مما يجعله يقف على أرض دائمة الارتجاج، ولذا كان التنازع في نفسه بين الإخلاد إلى سكينه العلم والتطلع إلى بريق السياسة.

وعلى الرغم مما في سلوك ابن خلدون السياسي من تناقض فقد كان الأمر بالنسبة إليه طبيعياً إلى درجة لا يقتضي منه أي تبرير أو اعتذار.

وقد لاحظ ذلك علي الوردي فابن خلدون في رأيه: «يذكر الأفعال الانتهازية التي قام بها في أيام شبابه بصراحة عجيبة لا يرائي فيها أو يعتذر عنها، وكأنه يعدها أمراً طبيعياً لا داعي لكتمانه»⁽¹⁾.

كان ابن خلدون واقعياً إلى أبعد الحدود، أدرك من خلال تأمل ما يحيط به من حراك سياسي، وما قرأه عن سلف أن العصبية هي المحرك الأول للفعل السياسي، هي التي تتشئ الدول وهي التي في حال ضعفها تؤذن بانهيارها، وبلغت العصر أن القوة هي وحدها التي تحدد المسرح السياسي وما يجري عليه، وأن ما يذكر أحياناً من دوافع دينية أو من قيم أخلاقية هو مجرد التعمية لا أثر لها في الفعل السياسي، وأدرك أن المثقف سواء كان فقيهاً أو شاعراً أو كاتباً لا يملك من سلاح إلا الكلمة، وهي في المجال السياسي لا أثر لها، وعلى المثقف الذي يريد الدخول إلى المجال السياسي أن يكون تابعاً للسلطة محافظاً إلى أقصى درجة على ولائه لمن يحكم، وأن يقوم بما يحدد له من دور دون أن يطمح أو يفكر بمنافسة على السلطة لأن مجرد الظن من قبل الحاكم في أمر كهذا يؤدي إلى احتراق المثقف.

ولم يكن للمثقف في ذلك الزمن أي سند شعبي لو فكر - مجرد التفكير - بالتغيير، فالشعوب التي أنهكتها الحروب والمجاعات والأوبئة والفقر كانت مفتتة، وفاقدة لأي قدرة على فعل جدي لتغيير واقعها المزري، والدليل على ذلك قدرة فئة محدودة من المرتزقة (المماليك) أن تحكم معظم الوطن العربي مدة قرنين ونصف دون أي معارضة شعبية حقيقية حتى أتت قوة خارجية

(1) منطلق ابن خلدون في ضوء حياته وشخصيته: 238.

لتزيحهم عن السلطة وتحل محلهم، مما جعل أحد الكتاب الغربيين لا يكاد يصدق ما حدث: «لا نكاد نصدق لأول وهلة، أن طائفة من الأرقاء.. يحكمون قطرًا غنيًا كمصر ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر»⁽¹⁾.

أمام هذا الواقع كان المثقف أيا كان، لا يجد أمامه من دور سوى الاعتزال في خندق علمه، أو الاستغلال بالسلطة القائمة أيًا كانت، وكان أكبر دور يمكن أن يؤديه المثقف في المجال السياسي أن يكون المثقف الواعظ الذي يحصر هدفه في تحسين وجه السلطة لا تغييرها ولا تعديلها، أما المثقف الملتزم فلم يكن المسرح الاجتماعي في ذلك الوقت مهيبًا لظهوره.

وكان ابن خلدون واعياً أشد الوعي لحراك المسرح السياسي أمامه، يعرف متى يظهر ومتى ينسحب، ومن ستكون له الغلبة في الصراع الدائر ليقف إلى جانبه، وكان يعلم أن دوره في مساندة بعض الحكام هو دور ثانوي فالأمر أولاً وأخيراً يخضع لميزان القوى وهو خارج قدرته. لم يكن أمامه إذا أراد أن يبقى في وهج السلطة إلا تأييد من يفوز في الصراع والاصطفاف إلى جانبه، وكان يدرك أن على من يريد السلامة أن يحترس أشد الاحتراس من كل ما يثير الشك في الولاء لمن بيده السلطة لأن عاقبة ذلك الدمار، وعندما خرج ابن خلدون عن التحفظ قليلاً والتقى بحاكم بجاية المقيم إجبارياً في فاس رُمي به في السجن مدة عامين ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة أبي عنان، وكان أمامه المثل الصارخ على وحشية السلطة ما حدث لأكبر أدباء الأندلس لسان ابن الخطيب إذ إن دسائس المحيطين بسُلطان الأندلس أدت إلى مقتله والتمثيل بجثته، ولم يكن ابن خلدون يريد لنفسه هذا المصير الشنيع.

(1) تاريخ دولة المماليك في مصر: 186.

وكان الحكام الذين التقى بهم ابن خلدون متساوين كأسنان المشط، كل منهم يتدرب بالقوة لا غير للوصول إلى السلطة والمحافظة عليها، وكل منهم يتبع كل الوسائل المشروعة أو غير المشروعة في سبيل ذلك، وكل منهم لا يملك أي مشروع خارج امتلاك السلطة، وفي هذا الصراع العبثي الدائر على مسرح الوطن العربي، فإن صعود أي حاكم لا يستحق الفرح، وسقوط أي حاكم لا يستأهل الحزن، فالوجوه تتغير ولكن المشهد يبقى ثابتاً.

كان ابن خلدون لا يجد أي حرج في تصرفاته السياسية بل هي تصرفات طبيعية لا تحتاج إلى أي تبرير أو اعتذار، ولكن الأهم من ذلك مواقف المنتقدين له من معاصريه، وعلى رأسهم ابن حجر العسقلاني، فابن حجر في ترجمته لابن خلدون مرّ بعمله السياسي مرّاً سريعاً ولم يتوقف في هذا المرور ليوجه أي اتهام لابن خلدون، اتهمه بالتكبر وبالترخص في السلوك، ولكن لم يسجل مأخذاً على ابن خلدون في عمله السياسي.

وإذا سعدنا إلى القرن التاسع الهجري بعد انقضاء قرن على وفاة ابن خلدون نجد أكبر منتقدي ابن خلدون وهو شمس الدين السخاوي، وفي ترجمته الموسعة لابن خلدون ينقل السخاوي المآخذ التي ذكرها شيخه ابن حجر العسقلاني لابن خلدون دون أن يعترض عليها كما ينقل آراء بعض المشيدين بابن خلدون ولا نجد في هذه الترجمة أي انتقاد لسلوك ابن خلدون السياسي، وفي جميع التراجم التي دونت في العصر الوسيط لابن خلدون من: ابن حجر، والسخاوي، إلى ابن تغري بردي، وبدرالدين العيني، والمقريزي، والشوكاني، والتبكتي، والحفناوي، وابن خطيب الناصرية، والمقري، ومحمد مخلوف، ولسان الدين ابن الخطيب والقرافي، والمكناسي، وابن العماد، والسيوطي، وابن الأحمر الأندلسي، لا نجد في أي ترجمة منها أي انتقاد لتصرفه السياسي.

وهذا دليل قاطع على أن سلم القيم في العصر الوسيط لم يكن يجد في تبعية المثقف للسلطات القائمة أي غرابة بل كان يجد ذلك أمراً طبيعياً جداً.

ولكن بعد مرور ستة قرون على عصر ابن خلدون حدثت تغييرات هائلة في الوضع العربي، ظهرت الدولة الوطنية بحدودها المعترف بها، وفرض الغرب هيمنته الاستعمارية على معظم أرجاء الوطن العربي، ثم ظهرت الثورات التحررية، واستقلت الدول العربية، ووضعت دساتير، وشُرعت قوانين لمختلف مظاهر الحياة، ونشأت الأحزاب وتغيرت البنى الاجتماعية، وتمايزت الطبقات، وألغي الرق، وظهرت أفكار جديدة مثل حقوق الانسان وتداول السلطة عن طريق الانتخابات، وحرية التعبير، والحكم للشعب، وبرزت وسائل إعلامية كثيرة واهتمت الكثير من الدول بنشر الديمقراطية، وانفتح العالم العربي على العالم الحديث ليأخذ منه الأفكار والمصنوعات، تغير المشهد كلية وتبعاً لذلك نشأ سلم جديد للقيم لم يكن معروفاً من قبل.

مع هذا التغير في الأفكار والقيم، فإن موقف المثقف من السلطة الآن ينظر إليه من منظور آخر والمثقف الآن إن أراد المعارضة سيجد ما يسند في موقفه سواء من داخل وطنه أو من خارجه، وهذا يقودنا إلى تساؤل مشروع، هل يمكن أن نطبق معايير العصر الحاضر على أحداث وشخصيات سابقة عملت في أوضاع مختلفة كلياً.

إن محاكمة ابن خلدون بقيم العصر الحاضر وعدم مراعاة الظروف الاجتماعية التي عمل من خلالها هو ظلم فادح ويجب أن يحاكم على أساس قيم عصره، ومن حق ابن خلدون في ذلك العصر المضطرب أن يبحث عن سلامته وهو يطمح إلى العمل السياسي، فليس من حق أحد أن يلومه لأنه لم يرض لنفسه أن يكون مشروع شهيد.

ومهما كان موقف المثقف في العصر الوسيط صادمًا لمعتقداتنا، ومهما كان هذا الموقف يجرح مشاعرنا فإن التاريخ والبنى الاجتماعية لا يمكن أن تسير وفق أهوائنا، فلكل عصر قيمه وأحكامه، ولكل بيئة مواضعها.

ليس هذا دفاعًا عن ابن خلدون فالأمر ليس موقفًا فرديًا وإنما ينسحب على جميع المثقفين في العصر الوسيط، فالمثقف سواء أكان كاتبًا أو فقيهاً أو شاعرًا لم يكن يملك إلا الكلمة ولم تكن لكلمته أنياب أو أظافر وكان يقف وحيداً أمام سلطة غاشمة تملك القوة والثروة ولا يجد سلطاتها قانون أو شرع، ولم يكن يساند المثقف مجتمع مدني، أو وسائل إعلام، أو أحزاب، أو طبقات، أو جمعيات لحقوق الإنسان، أو دول تراقب خرق هذه الحقوق وتعاقب عليها، لم يكن له أي سند أمام سلطان يحكم بمزاجه والموت والحياة لا يتطلب إلا كلمة منه.

كل ما يمكن أن نؤاخذ ابن خلدون عليه أن من الأفضل لرجل في مكانة ابن خلدون العلمية أن يحصر جهوده في الفضاء العلمي، وأن يبتعد عن العمل السياسي في ظروف صراع عبثية، وهذا ما اقتنع به أخيراً ابن خلدون بعد أن ذاق مرارات العمل السياسي فأثر الإخلاق إلى العزلة في قلعة بني سلامة لينتج عمله الرائع «المقدمة» ثم ليواصل في تونس ومصر على مدى ربع قرن من الزمن الانقلاب على أوراقه باحثاً في التاريخ عن آليات عمله وغاياته ومقدماتاً للتراث العربي ما فاجأ به عصره والعصور المقبلة من قدرة على تفسير التاريخ لا مجرد تدوينه.

التعريف بالأعلام الواردة في ترجمة ابن خلدون

وائل بن حُجر (٠٠٠ - نحو ٥٠هـ)

- وائل بن حجر الحضرمي القحطاني.
 - من أقبال حضرموت، وكان أبوه من ملوك حضرموت. وفد على النبي ﷺ فرحب به ودعا له: «اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده إلى يوم القيامة» واستعمله على أقبال حضرموت، ثم شارك في الفتوح، واستقرَّ في الكوفة، وزار معاوية لما ولي الخلافة فأجازه ولم يقبل جائزته.
- (الإعلام: 106/8)

محمد بن جابر القيسي (٦٧٣ - ٧٤٩هـ)

- محمد بن جابر بن محمد القيسي.
- فقيه، محدث، نحوي، مقرئ، لغوي.
- ولد بتونس، وتفقه على مذهب المالكية، وجال في البلاد المشرقية والمغربية، وأخذ عنه لسان الدين ابن الخطيب، وابن خلدون.
- من مؤلفاته: «الأربعون» في الحديث، وديوان شعر.
- توفي في تونس.

(معجم المؤلفين: 190/3)

عبدالمهيمن الحضرمي (٦٧٦ - ٧٤٩هـ)

- عبدالمهيمن بن محمد الحضرمي.
 - ولد في سبته ونشأ بها ودرس على مشايخها.
 - كتب للسلطان عثمان المريني ولابنه علي وتوفي بالطاعون.
 - كان عبدالمهيمن إمام الحديث والنحو في المغرب.
- (تاريخ الأدب العربي: 445/6)

ابن تافراجين (٧٦٦ - ١٠٠٠هـ)

- عبدالله بن تافراجين.
 - ينحدر من عائلة موحدية استقرت في تونس في خدمة بني حفص ومنح لقب وزير في عهد أبي بكر المتوكل، وأصبح الرجل القوي في عهد السلطان إبراهيم بن أبي بكر، وقام بدور رئيسي في العهد الحفصي لمدة عشرين عاماً.
- (تاريخ إفريقية في العهد الحفصي 185/1 - 213)

عبدالعزیز المريني (٧٥٠ - ٧٧٤هـ)

- عبدالعزیز بن علي بن عثمان المريني، أبو فارس.
 - كان شبه معتقل في فاس بأمر الوزير عمر بن عبدالله ثم استدعاه الوزير وهو مازال فتى وأجلسه على سرير السلطنة، وضايق عبدالعزیز باستبداد عمر فأمر بقتله واستولى على تلمسان، وعلى الجزيرة الخضراء، ثم عاوده المرض وهو بتلمسان حيث أدركته الوفاة.
- (الأعلام: 23/4)

الحسن بن عمر الفودودي (٠٠٠ - ٧٦١هـ)

- كان وزيراً للسلطان أبي عنان المريني، وبعد وفاة السلطان. استبد الحسن بالأمر، وقتل ولي العهد، ونصب أحد أبناء السلطان الأطفال واسمه أبو بكر سلطاناً، ولكن أحد إخوة السلطان أبي عنان وهو إبراهيم بن علي استولى على الحكم، وأبعد الحسن وولاه مراكش ثم ثار الحسن على السلطان، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله.

(الأعلام: 208/2)

أبو مدين التلمساني (٠٠٠ - ٥٩٤هـ)

- شعيب بن الحسن الأندلسي، أبو مدين.
- أصله من الأندلس، أقام بفاس، ثم سكن بجاية وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، وتوفي بتلمسان وقد أوفى على الثمانين.
- هو من كبار الصوفيين وله عدد من المؤلفات.

(الأعلام: 166/3)

المستنصر المريني (٧٥٧ - ٧٩٦هـ)

- أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي سالم المريني.
- كان مبعداً في طنجة، ولما بويع ابن عمه السعيد بالله قام أحمد وساعده الغني بالله ابن الأحمر واستولى على السلطة وبويع سنة ٧٧٦هـ، ثم ساءت العلاقات مع الغني بالله الذي أرسل موسى بن أبي عنان إلى المغرب فتنازل له المستنصر وأبعد إلى الأندلس ثم عاد إلى المغرب واستولى على السلطة بعد خلع الواثق، وأمر بقتل ابن ما ساي واستمر في الحكم حتى وفاته.

(الأعلام: 87/1)

الناصر فرج (٧٩١ - ٨١٥ هـ)

- فرج بن برقوق، من ملوك الجراكسة المماليك، بويع بالقاهرة سنة ٨٠١ هـ بعد وفاة أبيه، وكان صغير السن، وتوجه بالجيش إلى دمشق لملاقاة تيمورلنك، وحدثت بعض المناوشات بين الطرفين، ثم عاد إلى مصر بعد علمه بمؤامرة تُدبَّر ضده، وترك دمشق لمصيرها، وتآمر عليه الأمراء سنة ٨٠٨ و انتصر عليهم، ولكن في سنة ٨١٤ ثار عليه عدد من الأمراء فقاتلهم وانهزم أمامهم، وقُبض عليه وأُعدم بدمشق.

(الأعلام: 140/5)

عبدالله البشبيشي (٧٦٢ - ٨٢٠ هـ)

- عبدالله بن أحمد بن عبدالعزيز البشبيشي.
- ولد في قرية بشبيش وتوفي في الإسكندرية.
- عني بالأدب والتاريخ والفقہ.
- له كتاب في قضاة مصر وآخر في شواهد العربية.

(الأعلام: 68/4)

محمد الركراكي

- محمد بن يوسف الركراكي، من المائة الثامنة للهجرة.
- قدم من المغرب إلى القاهرة، ودرس على مشايخ عدة العربية والفقہ والأصلين، ودرّس في مدارس المنصورية، والحجازية والشيخونية وفي الجامع الأزهر، وكان كثير الاستهتار والاستهزاء بالكبار والصغار.

(رفع الإصر عن قضاة مصر: 431)

محمد بن عرفة (٧١٦ - ٨٠٣ هـ)

- محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الوردغمي التونسي.
- مقرئ، فقيه، أصولي، فرضي.
- ولد بتونس وتولى إمامة الجامع الأعظم.
- من مؤلفاته: المبسوط في الفقه المالكي ومختصر الفرائض.
- توفي في تونس.

(معجم المؤلفين: 683/3)

أبو الحسن الهيثمي (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ)

- علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، القاهري.
- حافظ له كتب وتاريخ في الحديث، منها: «مجمع الزوائد ومجمع الفوائد» و«تقريب البغية في ترتيب أحاديث الحلية».

(الأعلام: 266/4)

نظرة في قصائد المدح لدى ابن خلدون

كان انشغال ابن خلدون الثقافي الأول في تاريخه، ثم في فلسفة هذا التاريخ، ولم يكن الشعر بالنسبة إليه إلا نشاطاً ثانوياً تلجأ إليه الضرورة.

ولعل هذا البيت يفصح عن مدى علاقته بالشعر:

وما كان لي نظمُ القريضِ بضاعةً

ولكن دعائي نحو مدحك جاذبٌ

فهو لم يكن يعتبر نفسه شاعراً، ولذا لم يجمع ما قاله من شعر بل ترك للذاكرة أن تحتفظ ببعضه فتسرب الكثير منه إلى هوة النسيان.

كان ابن خلدون في تعامل مباشر مع سلاطين عصره في المغرب والأندلس ثم في مصر وكان الجواز إلى قلوب هؤلاء السلاطين هو الشعر، والمدح بخاصة، فهو في المناسبات المختلفة التي تمر بالسلطان من نصر أو شفاء من مرض أو ختان ولد، وفي المواقف التي تستدعي عطف السلطان: اعتذار عن خطأ، أو توسل للفاكك من السجن يجد ابن خلدون نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى الشعر فهو أداة الخطاب الوحيدة التي تملك سرعة النفاذ إلى قلب ولي الأمر، وهو الوسيلة الأكثر طلباً والأكثر قبولاً.

ولعلّ في موقف ابن خلدون من سلطان تونس ما يكشف هذه الضرورات، فقد أخذ خصوم ابن خلدون عليه أنه لم ينظم شعراً في مدح سلطان تونس،

وعدّوا ذلك مثلبة من مثالبه، وكان أن اضطر ابن خلدون إلى نظم قصيدتين في مدح ذلك السلطان لينفي عن نفسه هذه التهمة .

وفي أثناء وجوده في معية سلطان الأندلس جاءت مناسبة المولد النبوي، وكان المعتاد في هذه المناسبة أن ينظم الشعراء قصائد نبوية في هذا اليوم، فاضطر ابن خلدون إلى مجازاة التقليد فنظم قصيدة كان مدح الرسول عليه السلام فيها مطية للوصول إلى مدح سلطان الأندلس .

والدليل على أن الشعر لم يكن شاغل ابن خلدون الأول أنه لم يحتفظ بالشعر الذي نظمته في سجل خاص به ولم يسع لتأطيره في ديوان، بل ترك للذاكرة، وكثيراً ما تخون، أن تختزن ما تستطيعه من هذا الشعر، وعندما فكر ابن خلدون في ختام تاريخه أن يروي مسيرته في الحياة أورد في هذه الترجمة ما أسعفته الذاكرة من هذا الشعر. ومما يشير إلى ذلك أنه ذكر في قصيدته البائية التي أنشدها في ختان ابن سلطان الأندلس: «لم يحضرني منها إلا ما أذكره»⁽¹⁾ وفي قصيدته البائية التي أنشدها للسلطان أبي عنان وهو في المعتقل لم يذكر منها سوى خمسة أبيات وعقب على ذلك: «وهي طويلة»⁽²⁾ نحو مائتي بيت ذهبت من حفظي».

فالشعر الذي ورد في «التعريف بابن خلدون» وفي بعض المصادر الأخرى لا يمثل إلا عينة أو شريحة من الشعر الذي نظمته ابن خلدون .

وعدد القصائد التي سلمت من شعر ابن خلدون هو اثنتا عشرة قصيدة ومقطوعة واحدة. وقبل أن نتفحص هذا الشعر المتبقي، ونتبين خصائصه

(1) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 88.

(2) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: 67.

علينا أن نقف أولاً عند تصور ابن خلدون للشعر ونظرته إليه، فهذا التصور هو الذي يتحكم في طريقة تعامل ابن خلدون مع الشعر.

يحدد أولاً ابن خلدون تعريفه للشعر، فهو لا يقر بالتعريف المألوف أن الشعر «هو الكلام الموزون المقفى» بل يضع للشعر مواصفات محددة فهو أولاً: «الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف»⁽¹⁾، وهو ثانياً: «المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي»⁽²⁾. وهو ثالثاً: «مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده»⁽³⁾، وهو أخيراً: «الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»⁽⁴⁾.

وسنجد في هذا التحديد أمر إيجابي يتجاوز التعريف المشهور لقدامة وهو إدخاله الصورة كعنصر أساسي في الشعر، ولكن البنود الأخرى تحجر على الشعر في خانة التقليد بأشد صورته: فاستقلال البيت الشعري عما يجاوره، والسير على أساليب العرب المتعارف عليها، هو تحديد لحرية الشاعر وإلزامه بما هو مألوف، وتتصاعد هذه المحافظة بالجنوح إلى الرأي القائل بأن أي خروج على التقاليد الشعرية المتوارثة يجرد الشاعر من هذا المسمى، ولو كان الشاعر في حجم المتنبى والمعري، فهو يقول نقلاً عن شيوخ الصنعة الأدبية: «إن نظم المتنبى والمعري ليس من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب»⁽⁵⁾.

وهذه النظرة المحافظة تستمد جذورها من الاعتماد على الحفظ كمصدر أساس للإبداع الشعري لا على الخيال: «فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ

(1) مقدمة ابن خلدون: 572.

(2) مقدمة ابن خلدون: 572.

(3) مقدمة ابن خلدون: 572.

(4) مقدمة ابن خلدون: 572.

(5) مقدمة ابن خلدون: 572.

الشعر»⁽¹⁾، ويحدد مجال الحفظ: «يحفظ العالي في طبقتة من الكلام»⁽²⁾ وإذا كان ابن خلدون قد جعل من شرط الحفظ: «نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة»⁽³⁾ فإن هذا الطلب غير خاضع للإرادة بعد أن تتخم الذاكرة بقوالب المحفوظ، وهذا الاعتماد على الذاكرة أساساً يؤدي إلى إعادة إنتاج النماذج التراثية المحفوظة وإعادة نسخها، أي أن الشاعر يبقى ضمن الدائرة التي رسمها الأسلاف من الشعراء وبخاصة في العصور الأولى قبل أن يبدأ بعض الانفتاح على الآخر ويحاول بعض الشعراء إحداث بعض الثقوب في هذا الإطار الحديدي المحيط بالشعر.

في بناء القصيدة يتبنى ابن خلدون المفهوم التقليدي للبناء وهو أن تكون القصيدة مركبة وليست بسيطة، تتلاقى فيها أغصان متشابكة من الموضوعات في قالب واحد. فالشاعر عليه أن «يستطرد من النسيب إلى المدح، ومن وصف البيداء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف»⁽⁴⁾ هكذا كان الشعر كما حدد طريقه الأولون وهكذا يجب أن يسير على هذا الطريق المتأخرون.

ويعيد ابن خلدون ويكرر ما ذكره بعض النقاد القدماء عن المعاني: «فالمعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة»⁽⁵⁾ والمقصود بالمعاني هنا ليست الأفكار لأن الأفكار لا حدود لها، ولكن المقصود بها هي الصفات التي تلتصق بالممدوح أو بالمهجو أو بالمرثي.

(1) مقدمة ابن خلدون: 578.

(2) مقدمة ابن خلدون: 578.

(3) مقدمة ابن خلدون: 573.

(4) مقدمة ابن خلدون: 568.

(5) مقدمة ابن خلدون: 577.

وهي نعوت محددة لا يحتاج الشاعر المحافظ إلى أن يشغل تفكيره بها، وإنما المطلوب منه أن يعبر عن هذه الأوصاف المتعارف عليها بلغته الخاصة، ويتفاضل الشعراء فيما بينهم بهذه الصياغة.

لقد حدد قدامة بن جعفر في كتابه «نقد الشعر» وهو أول من حاول أن يقدم نظرية شعرية في البيان العربي، الصفات التي يتناولها الشاعر في أغراضه، ومع أنه يذكر «أن الواجب أن لا يمدح الرجال إلا بما يكون لهم وفيهم»⁽¹⁾ إلا أنه يتجاوز هذه العبارة بعد قليل ليبيّن أن فضائل الناس إنما هي «العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً.. والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها»⁽²⁾.

أي إن الشاعر ليس بحاجة إلى النظر في صفات الممدوح الخاصة وما هي عليه في الواقع، بل عليه أن يُفصّل له صفات أخرى عامة تعدّ المثل الأعلى للممدوح، وبذلك تنتقل من الواقع المشاهد إلى واقع مصطنع.

يمكننا أن ندرج ما بقي من شعر ابن خلدون ضمن إطار الشعر الوظيفي، وهو شعر ينطلق من مناسبات معينة وينحصر ضمن هذه المناسبات، ولا يتخذها وسيلة للصعود بها إلى فضاءات الروح الشاسعة. هو نظم لشاعر لا تشغله أسئلة الوجود الكبرى التي تحاصر الإنسان، ولا تقلقه تداعيات النفس وهي تتأمل في مصيرها المجهول.

الشعر هنا جواب واستجابة لظروف عملية تجبر الشاعر على مراعاتها حفاظاً على ثبات وضعه في سلم السلطة، والشعر الوظيفي ليس في حاجة إلى التأمل، أو الأناة في التفكير فهو أقرب إلى الشعر الارتجالي لأن الطريق

(1) نقد الشعر: 95.

(2) نقد الشعر: 96.

مرسومة سلفاً وما على الشاعر إلا أن يستحضر ثروته اللغوية للإفصاح عن المعاني المحددة وهو الخطاب الذي ينتظره منه سلاطين عصره، ويقتصر شعر ابن خلدون على دائرة الحكام ومن يلوذ بهم، ولا نجد أي شعر يوجهه ابن خلدون إلى عالم مثله فهو لم يجب على قصائد أرسلت إليه من شاعرين كبيرين هما: لسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك واكتفى بأن أورد قصائدهما إليه خلال سيرته.

والنظرة الخارجية إلى شعر ابن خلدون تظهر لنا طول نفس الشاعر فقصائده من النوع الممتد، ولا توجد لدية مقطوعات سوى مقطوعة واحدة خانتها الذاكرة من إيرادها كاملة وتتعدى بعض القصائد مئة بيت وقد تصل إلى مئتين كما يذكر ابن خلدون عن إحدى قصائده التي أفلتت من ذاكرته، وهذا الطول في القصائد تسعفه فيه الثروة اللغوية الوفيرة التي يتمتع بها الشاعر، ولغته أقرب إلى اللغة التراثية الجزلة البعيدة عن الحوشي والغريب. وهو يختار من البحور، البحور الطويلة فمعظم قصائده من بحري الكامل والطويل، وهما الأكثر تردداً في قصائد الشعراء القدماء، ولا وجود للبحور القصيرة، أو للبحور المجزوءة أو المشطورة.

ويختار الشاعر من القوافي ما يساعده على الإطالة، فقافييتا الباء واللام هما الأكثر تردداً في قصائد ابن خلدون مما يتيح له وفرة من مفردات القافية.

هذه النظرة الخارجية تؤكد التزام ابن خلدون بالنهج التقليدي للشعر. والموضوع الرئيسي في شعر ابن خلدون هو المدح وقد يتوشح هذا المدح بالشكوى أو بالحنين، أو بالمديح النبوي ولكن يبقى المحور الرئيسي الذي

تتوجه إليه القصيدة هو المديح، وفن المديح هو الفن الرئيس في الشعر العربي، بل لم تكن الفنون الأخرى إلا صورة أخرى من المدح، فالرثاء هو مدح بصيغة «كان» والهجاء نفي للمدح وقلبه إلى الصورة المعاكسة.

هناك سلاطين خمسة يتوجه إليهم ابن خلدون بالمدح هم: أبوعنان، وأبوسالم سلطان المغرب، والغني بالله سلطان الأندلس، وبرقوق سلطان المماليك، وأبوسالم الحفصي سلطان تونس، أما أبوحمو سلطان تلمسان فقد خانت ابن خلدون ذاكرته فلم يبق من القصيدة إلا مقدمتها التي اقتصرت على خمسة أبيات.

وقبل أن ننظر إلى الصورة الفوقية التي رسمها ابن خلدون بقصائد المدح لننظر إلى أصل هذه الصورة إلى الواقع الحقيقي الذي أنتج هذه الصورة، فهل هناك توافق أو تناظر بين الصورة والأصل؟

يلخص لنا ساطع الحصري حالة العالم الذي تنقل فيه ابن خلدون بقوله «إن العصر الذي عاش وعمل خلاله ابن خلدون.. كان من عصور التحول والانتقال.. تحول وانتقال نحو التفكك والانحطاط في العالم العربي»⁽¹⁾.

ويقدم المقريزي تلميذ ابن خلدون شهادة صادمة للوضع في مصر: «قد شمل الخراب قرى أرض مصر، ومع ذلك فالأحوال متوقفة، والأسواق كاسدة، والمكاسب قليلة، والشكاية عامة.. ولله عاقبة الأمور»⁽²⁾ هذا في مصر.

وفي المغرب في الطرف الشرقي من الأرض العربية كانت دمشق عاصمة بلاد الشام بعد أن غادرها ابن خلدون بفترة وجيزة وبعد أن منحها

(1) دراسات عن مقدمة ابن خلدون: 3

(2) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: 355.

السفاح تيمورلنك الأمان تأكلها النيران بشرًا وحجرًا، فالنار «أحرقت غالب من كان داخل البلد لعدم الغواث، فما ظنك بما يكون من العمائر والأقشمة والأثاث، وضريت الكلاب بأكل لحوم من مات داخل البلد»⁽¹⁾ أما في أقصى الغرب، فقد كانت الأندلس تسيّر نحو نهايتها، تتأكل أطرافها ويضيق عليها الخناق شيئًا فشيئًا مع التنازع الدائم بين حكامها على سلطة آفة.

وفي المغرب لم تكن الصورة مختلفة: «وفي سنوات الاضطرابات السياسية، وفي سنوات الجذب المتكررة الكبيرة سرعان ما تنتشر المجاعة وتفتك بالعباد، كما كانت الأوبئة تنتشر بكثرة»⁽²⁾.

هذا هو المشهد في عموم الأرض العربية، كانت الشعوب غائبة عن الفعل تتقاسمها الأوبئة والمجاعات والحروب، ولم يكن الحكام يحسبون أي حساب لهذه الكتل البشرية: «ولا يذكر المؤرخون شيئًا عن دور الدولة في اتخاذ أي إجراء للتخفيف من معاناة الناس سوى دفنهم مجانًا»⁽³⁾.

أما سلاطين هذه المرحلة فلم يكن من بينهم من يطمح ليتخطى عصره، وليكون له مشروع نهضوي يخلده، فكان أقصى طموح لكل منهم الوصول إلى السلطة ثم الحفاظ عليها، وفي سبيل ذلك كل شيء جائز أن يقتل الابن أباه كما فعل أبوعنان مع أبيه أبي الحسن المريني في المغرب، أو أن يثور الأخ على أخيه كما ثار الأخ على الغني بالله وعزله في الأندلس. أو يقتل حاكم قسنطينة ابن عمه حاكم بجاية ليستولي على الحكم، ولا بأس أن يستعين أحد أطراف الصراع بالعدو المتربص كما حدث مرات ومرات في الأندلس. لم يكن

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور: 289

(2) تاريخ افريقية في العهد الحفصي: 461.

(3) الفقر والإحسان في مصر: 246.

لأي سلطان في هذه المرحلة مشروع يتعدى به حدود سلطته، وكانت قواعد الشرع ومبادئ الخلق خارج تعاملاتهم السياسية.

ولعل في تقديم نموذجين للسلطين في تلك الفترة ما يؤكد ذلك، ففي الطرف الأقصى الأندلس كان مؤسس دولة بني نصر نموذجاً لمن أتى من بعده: «آثر مهاذته فرناندو فسار إليه معترفاً بطاعته، وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يحكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة، وأن يؤدي جزية سنوية مقدارها (150) ألف قطعة ذهبية⁽¹⁾» وفي الطرف الأوسط.. مصر يقدم لنا السلطان فرج مثلاً صارحاً لتخلي الحاكم عن مسؤولياته تجاه شعبه في سبيل الحفاظ على سلطته، فقد توجه السلطان فرج، وكان برفقته ابن خلدون، إلى دمشق لإنقاذها من تيمورلنك وما أن وصل إلى دمشق وسمع بأن هناك من يتآمر عليه في مصر حتى سارع بجنوده إلى مصر وترك دمشق لمصيرها الكارثي، سلمت السلطة ودُمّرت دمشق.

ولعل ابن خلدون في سيرته الذاتية هو أفضل شاهد على عصره وما حفل به هذا العصر من فوضى وتهافت، واجه ابن خلدون وهو في مطلع شبابه الطاعون الجارف الذي أودى بوالديه وبالعديد من مشايخه وكان هذا الطاعون يتردد بين فترة وأخرى فيوقع خسائر بشرية فادحة، وعاین وهو ينتقل في أرجاء المغرب الكبير سلسلة لا تنتهي من الحروب فكان ينتقل من حرب إلى أخرى، حروب عبثية. تدور في حلقة مفرغة بين أفراد البيت الواحد، والبيوت المتجاورة، تتسع الدولة حيناً على حساب جيرانها ثم ما تلبث أن تتكشمش، وتستنزف طاحونة الحروب قدرات المجتمع وإمكانية تطوره، كل يتآمر على الكل، وكل يشك في كل من حوله، كان هو الحال في قمة السلطة

(1) تاريخ العرب السياسي في الأندلس: 511.

حيث الأرض ترتج دائماً بمن فيها، وكان ابن خلدون يحاول الاحتفاظ بالتوازن في هذا الوضع المتقلب، فهو متفرج حيناً، ومشارك حيناً آخر. ويتحمل تبعات الشكوك ممن حوله فهو لا يستقر، يتنقل من مكان إلى آخر زاهداً بالسلطة حيناً وطامعاً فيها حيناً آخر، ولم يشعر بالطمأنينة إلا حينما خلع نفسه من نير السلطة وتفرغ للعلم، وللعلم وحده.

تحدث ابن خلدون في سيرته عن عدم الاستقرار السياسي في الدول التي عاشها، في المغرب ثمانية سلاطين يتتابعون خلال عقدين من الزمن، وفي مصر حيث التآمر والقتل هو الطريق من سلطان إلى آخر وما كان يجره هذا الاضطراب من تدمير لممتلكات الناس، وعانى ابن خلدون من هذا الاضطراب السياسي فألقي به في السجن مرة، وأجبر على الفتوى لمؤازرة إحدى الثورات، واضطر إلى الاعتذار، ورمى به هذا الاضطراب من بلد إلى آخر.

حكى عن انعدام الأمن في الطرق وتعرض لقطاع الطرق وكاد يفقد حياته في المغرب مرة، ومرة أخرى وهو في طريقه من دمشق إلى مصر، وتحدث ابن خلدون عن الفساد المنتشر في القضاء بين الشهود والمفتين وضياع حقوق الناس وشراء المناصب بالرشى، وأدى ذلك الفساد به إلى أن عزل وأعيد إلى القضاء مرة تلو أخرى.

وروى ابن خلدون ما جرى لمدن الشام العريقة من وحشية تيمورلنك من تدمير وحرق واغتصاب، ولم تجد المدن من يدفع عنها ببرية المعتدين، كانت هذه الصورة الواقعية البائسة للوضع العربي في بلاد المغرب والأندلس ومصر والشام في القرن الثامن الهجري كما أكدها شهود ذلك العصر وعلى رأسهم ابن خلدون نفسه، فكيف كانت الصورة الفوقية المقابلة التي يرسمها ابن خلدون بمدائحه لهذا الواقع؟

لا نجد الواقع البشري الذي أكده الشهود في قصائد المدح لابن خلدون
بل نجد واقعاً آخر لا مختلفاً فقط بل مغايراً كلية، ففي إحدى قصائد مدح
سلطان المغرب تصور المغرب في عهد السلطان أبي سالم:

هِيَ جَنَّةُ المَأْوَى لَمَنْ كَلَفَتْ

أَمْأَلَهُ بِمَطَالِبِ المَجْدِ⁽¹⁾

وفي تونس صور ابن خلدون حياة الناس في ظل السلطان الحعضي
يتمايلون من نشوة السعادة:

يَتَمَائِلُونَ مِنَ المَسْرَّةِ والرَّضَى

وَيُقَابِلُونَ أَهْلَهُ بِشُمُوسِ⁽²⁾

وفي قصيدة أخرى تبدو الدنيا أي بأبهى صورها:

فَكأنَمَا الدنْيَا عَرُوسٌ تُجْتَلَى

فَتَمِيسُ فِي حُلِّ الجَمَالِ وتَرْفُلُ⁽³⁾

وفي الأندلس ينعم الناس بالعدالة والطمأنينة:

وافت خلافتك الغراء - لا عدمت -

بكل عدل وإحسانٍ وتسكين⁽⁴⁾

لعل كلمتي «الجنة» و«العروس» تلخص لنا الوضع البشري الذي صوره
ابن خلدون، فهو ليس وضعاً مقبولاً أو جيداً بل بلغ ذروة الكمال، الكل راض
لا أحد يشكو من مرض أو من جوع أو من ظلم أو من انعدام الأمن، هذه
الأوجاع البشرية ليس لها محل في الصورة وإذا كان الوضع البشري لا يأخذ

(1) القصيدة رقم (5).

(2) القصيدة رقم (6).

(3) القصيدة رقم (9).

(4) القصيدة رقم (13).

من الاهتمام المدحي إلا حيزًا محدودًا فإن صورة السلطان هي التي تمتد على مساحة المشهد بأكمله تقريبًا.

يضع ابن خلدون كل واحد من ممدوحيه في مكانة مفردة لا يشاركه أحد فيها، فأبو عنان «تزاحم تيجان الملوك ببابه»⁽¹⁾، وأبو سالم «جلّ في شرفٍ عن رتبة المنصور والمهدي»⁽²⁾ و«سلطان تونس» «فلأنت أعلى المالكين»⁽³⁾ و«سلطان مصر» «خوند الملوك»⁽⁴⁾، و«سلطان الأندلس» «مولى الملوك و«سلطان السلاطين»⁽⁵⁾.

وكل منهم هو الوحيد الذي يتوقع منه تحقيق الأمل. فأبو عنان «وما خلصت إلا لبابك هجرتي»⁽⁶⁾ ولم تصف لي ممن سواك المآرب»، وأبو سالم «لا يرجون غيرك»⁽⁷⁾، و«سلطان تونس» «هل غير بابك للغريب مؤمل»⁽⁸⁾، و«سلطان مصر» «همة ما عرفتها لسواك»⁽⁹⁾ و«سلطان الأندلس» «النجح عند سواه غير مضمون»⁽¹⁰⁾.

وإذا كان كل حاكم ينفرد بمكانة عليا وتوجه أصحاب المقاصد إليه وحده فإن المناقب التي يتصف بها هؤلاء الحكام والتي للمادح أن يتغنى بها هي ذاتها.

لعل السمة الأولى التي يشترك بها الجميع هي القوة والغلبة وهي السمة الأبرز التي تعلق على باقي السمات وتستدعي الحديث الأطول والأوسع، وإعلاء هذه الصفة عند ممدوحيه هو إقرار بواقع الحال، فالقوة

(1) القصيدة رقم (1).

(2) القصيدة رقم (5).

(3) القصيدة رقم (9).

(4) القصيدة رقم (10).

(5) القصيدة رقم (13).

(6) القصيدة رقم (1).

(7) القصيدة رقم (5).

(8) القصيدة رقم (5).

(9) القصيدة رقم (9).

(10) القصيدة رقم (13).

هي الشرعية الوحيدة التي يستند إليها كل من عرف من حكام عصره، هي الرافعة للوصول إلى السلطة وهي الضمان لاستمرار هذه السلطة.

القوة والغلبة سمة مشتركة في مدح سلاطين عصر ابن خلدون ولكن القوة تبرز بشكل أوسع وأشد في ساحتين هما ساحة المغرب ثم ساحة تونس والسبب أن التنازع على السلطة كان الأقوى في هذين القطرين مما جرّ إلى كثير من الثورات والحروب لإنشاء سلطات جديدة، أو لتأكيد سلطات قائمة، ففي القصيدتين (1، 9) يبلغ استعراض القوة مداه من ناحية الاتساع والدخول في مفردات القوة وتداعياتها المختلفة. فالقوة قاهرة لا يمكن لأحد مناجزتها فهي تفرض الخضوع على كل من يبغى اختبارها: ولا تقف دون الخضوع التام:

وَدُوِّخَتْ أَرْضَ الْغَرْبِ حَتَّى تَسَابَقَتْ

لَأَمْرِكَ طَوْعًا عَظْمُهُ وَالْأَعَارِبُ⁽¹⁾

وفي قصيدة أخرى:

دَانُوا لِقَوْمِكُمْ بِأَقْوَمِ طَاعَةٍ

هِيَ عَرْوَةُ الدِّينِ الَّتِي لَا تُفْصَلُ⁽²⁾

في هذين النصين يتتبع ابن خلدون الصراع على السلطة بتفصيل شديد. فهو يبرز موقف الثائرين غير المقبول ويذكر تعنتهم واستحلالهم للمحرمات، وفي الطرف الآخر يعرض خطوات السلطان لمواجهة هذا التمرد والمحاولات التي جرت لمنع الصدام ثم اللجوء إلى استخدام القوة المسلحة، ويطنب ابن خلدون في وصف هذا الجيش ومعداته وروحه المعنوية ويسرد

(1) القصيدة رقم (1).

(2) القصيدة رقم (9).

وقائع القتال ثم ينتهي إلى نتائج المعركة والتدابير المتخذة لإصلاح الحال.

وابن خلدون يعرف أن القوة الخشنة المجردة والعمياء ليست مبررة وغير مقبولة فيضع لهذه القوة المقدمات والتوابع التي تستر عريها ووحشيتها بحيث يمنح القوة كل مبررات القبول، فالحكم لا يبدأ الحرب قبل أن يمهد له بالنصيحة وابدأتهم بالقول لو أن سعيهم

حميدٌ لما ساءت لديهم عواقب⁽¹⁾

وعندما أبى العصاة الركون إلى السلم كان للرهبة التي يتصف بها السلطان دورها في زلزلة العصاة:

فسمتهم بالرعب قبل نزالهم

ففلت جموعٌ منهم ومضارب⁽²⁾

ثم جاءت القوة القاهرة التي هي «آخر الدواء الكي» - كما قيل - وكانت الهزيمة:

حتى تفرق ذلك الجمع الألى

عصفت بهم ريحُ الجلال فزلزلوا⁽³⁾

ولكن الهزيمة لا يعقبها التشفي والانتقام فعقلانية السلطة تعطي للسياسة وللمرونة دورها بعد أن تحقق القوة غايتها حيث يعقبها العفو والإحسان الذي يزيل كل آثار العسف ويعيد النفوس إلى الراحة والطمأنينة وتتزع منها كل دواعي رد الفعل:

ثم استملتهم بأنعمك التي

خضعوا لعزك بعدها وتذللوا⁽⁴⁾

(1) القصيدة رقم (1).

(2) القصيدة رقم (1).

(3) القصيدة رقم (9).

(4) القصيدة رقم (9).

هذه هي الصورة المثلى التي يضيفها ابن خلدون على الدعامة الأساسية للسلطة في زمانه وهي القوة القاهرة، وهي قوة في منتهى القدرة ولكنها أيضًا قوة لإعادة اللحمة للمجتمع لا لتمزيقه.

والمعلم الثاني من معالم المدح في سلاطين العصر هو الولاء الديني، وابن خلدون وهو الخبير بخفايا عصره يدرك تمام الإدراك ان الصراع على السلطة في عصره لم يكن صراعًا دينيًا بل كانت صراعًا سياسيًا شخصيًا بامتياز، والدين يتحول في هذا الصراع إلى مجرد غطاء شرعي.

إذا كانت القوة هي الدعامة الواقعية التي تبنى عليها السلطة فإن الدين يستدعى ليكون ستارًا يخفي وحشية القوة وتغولها.

فسلطان المغرب أبو عنان قد اختار الدين على الدنيا:

وملت عن الدنيا إلى الدين راغباً

على رغبةٍ منها فنعم المرأغب⁽¹⁾

وأبوسالم شاد بنيانه السلطوي على التقوى:

يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى

واستأثروك بتاجها المعصوب⁽²⁾

وسلطان تونس هو نصير الدين والدليل على تقواه إيثار لذائذ السير إلى

الصلاة في وقت الحر وفي عتمة الليل على لذائذ الدنيا:

هَجَرَ المني فيها ولذاتِ المني

في لذةِ التهجيرِ والتغليس⁽³⁾

(1) القصيدة رقم (1).

(2) القصيدة رقم (1).

(3) القصيدة رقم (6).

وسلطان مصر همّه إرضاء الله في كل وقت:
وشكورٌ لأنعم الله يُفني
في رضاه عُدوه وأصيله⁽¹⁾

وسلطان الأندلس:

أحييت مجتهداً دينَ النبيّ بها
ومجدَ آبائك العُزّ الميامين⁽²⁾

يتحول الحكام الغارقون بالدم وبلذائد الدنيا إلى زهاد ومتصوفة كل همهم نيل رضا الله وإقامة الدين على الوجه الصحيح وأداء العبادات المفروضة والمسنونة، وهم في غاية التقى والورع، أصبح الدين في صلب اهتمامات حكام العصر الذين لم يحافظوا من الدين إلا على مظاهره المجوفة.

والمعلم الثالث من معالم المدح هو الكرم، وإذا كان الكرم يتصدر قصيدة المدح في أزمنة سابقة فإنه في هذا الوسط يتراجع عن المقدمة ليكون أحد المعالم بعد أن تراجع دور الشعر في تكوين الرأي العام وفي إسناد السلطة، وهو يستدعي كعلامة من علامات الوجاهة والزينة لا أكثر، والكرم كالعادة في الممدوح ينبغي أن يبلغ أقصى درحاته فأبو عنان «أوسع أبناء الزمان نواله»⁽³⁾ و«غمائم للعافين تهتن صُيب»⁽⁴⁾.

وأبوسالم هو «الواهبون المقربات»⁽⁵⁾ هواتنا» وسلطان تونس «يعطي عطاء المنعمين فيجزل»⁽⁶⁾ وسلطان مصر «وأنلتهم كل ما شاء العلاء أن ينيله»⁽⁷⁾ وحاكم الأندلس «فياض اليدين وهوب»⁽⁸⁾.

(1) القصيدة رقم (10).

(2) القصيدة رقم (13).

(3) القصيدة رقم (1).

(4) القصيدة رقم (1).

(5) القصيدة رقم (2).

(6) القصيدة رقم (9).

(7) القصيدة رقم (10).

(8) القصيدة رقم (13).

والمعلم الرابع هو الرأي السديد أو التفكير السليم الذي يتيح للحاكم المرونة في التعامل مع الأحداث بما يتلاءم مع كل وضع، وهي صفة مشتركة بين ممدوحى ابن خلدون.

فأبوعنان له من الفكر ما يضيء به ظلام الخطوب:

فَفِكْرٌ إِذَا مَا أَظْلَمَ الْخَطْبُ نَيْرٌ

وَفَهْمٌ إِذَا مَا أَشْكَلَ الْعِلْمُ ثاقِبٌ⁽¹⁾

وأبو سالم:

لَأَبَيَّتْ إِلَّا الرُّشْدَ مُذْ وَضَحَتْ

بِالْمُسْتَعِينِ مَعَالِمُ الرُّشْدِ⁽²⁾

وسلطان تونس

بشكيمة مرهوبة وسياسة

تجري كما يجري فُراتٌ سلسلٌ⁽³⁾

وسلطان مصر

يا خوندا الملوك يا معدل الدَّهْ

رِ إِذَا عَدَلَ الزَّمَانُ فصوله⁽⁴⁾

هذه صورة نمطية يرسمها ابن خلدون لحكام عصره، صورة لا علاقة لها بالواقع بكل هشاشته وتهافته بل هي صورة متخيلة تحقق مصلحة الطرفين المادح والممدوح فشهادة ابن خلدون على عصره من خلال شعره هي أقرب إلى شهادة الزور.

(1) القصيدة رقم (1).

(2) القصيدة رقم (5).

(3) القصيدة رقم (9).

(4) القصيدة رقم (10).

هنا تختفي الحقيقة وتظهر صورة مزيفة للواقع، فالحاكم في كل البلاد التي عاش فيها ابن خلدون هو النموذج الأمثل للحاكم، في غاية القوة والشجاعة وإقامة شعائر الدين والرأي النير والكرم الوفير ولا تتخلل سيرته أي ثغرة أو ما يشين، والشعوب في الجانب الآخر في غاية السعادة والرضا عن حكامها تعيش في ظل من الأمن والعدل والرفاه.

الطرف الوحيد الذي يجأ بالشكوى هو الشاعر، وهو لا يشكو من وضع عام للمجتمع الذي يعيش ضمنه بل هو يشكو من أمور شخصية ذاتية تخصه هو، يشكو من غربته، ويشكو من قسوة السجن ومرارته ويتوسل سلطان المغرب للعفو عنه بعد أن يعلن توبته والنزوع عن كل ما يسخط السلطان.

وهو يتوسل إلى الوزير الجوباني ليتوسط لدى سلطان مصر للعفو عما ارتكبه من التوقيع على وثيقة تؤيد الثائرين عليه ويحاول تبرير ما فعله والاعتذار، ويشكو من الظلم بنقل الخانقاه عنه، وهو يلجأ إلى الوزير عمر بن عبدالله أملاً أن يساعده في السماح له بالسفر إلى الأندلس.

ومدحيات ابن خلدون وهي نموذج شائع لقصيدة المدح وللمأزق الذي كتب على قصيدة المدح أن تنحشر فيه، فالمادح لا يمكن ان يصور الواقع الذي يراه لأن كلفته باهظة، ليس في خسارة الامتيازات التي يتمتع بها المدح بل قد يصل الأمر إلى خسارة وجوده، وهو مضطر الى أن يسير على النمط المؤلف الذي حدده الشعراء السابقون له، وأطره بعض نقاد الشعر، أن يهرب من الواقع إلى المثال، وهذا المثال محدد بدقة بأفكاره وقسماته، هنا يفقد الشاعر حرية واختياره، والحرية الوحيدة الممنوحة له هي في التعبير عن هذه الأفكار والقسمات بألفاظه الخاصة، حتى في هذا المجال قد تتساوق الصور والألفاظ ويبقى الفارق بين مدحية وأخرى محدوداً، فقصيد المدح تفقد بهذه المواصفات خصوصيتها وتصبح مدحية عامة، فالقصيدة

الموجهة إلى سلطان معين يمكن - لو تخلت عن بعض الإشارات الخاصة - أن توجه إلى أي سلطان آخر دون أي حرج، وقصائد المدح في أي ديوان ولو تعددت فهي في واقع الحال قصيدة واحدة.

والتمايز بين قصيدة وأخرى في الديوان أو بين شاعر وآخر يكمن في الألفاظ والصور التي تجسّد هذه المعاني، وهنا تبرز قدرة الشاعر على التعامل مع أدوات الشعر من لغة وعروض ونحو وموسيقا وصور، وبحسب إتقان الشاعر لهذه الأدوات وقدرته على الخروج من أسر الصيغ اللفظية المتهالكة والصور المكررة يتفوق شاعر على آخر، أي أن الشعر يتحول إلى صنعة كأى حرفه يدوية أخرى، فالشعر لم يعد بوحاً عن النفس أو مواجهة للمصير الإنساني بكل أسئلته وأغازه بل هو مجرد إعادة ما قيل في هذا المجال بأساليب قد تختلف قليلاً أو كثيراً، والحكم على الشاعر يقتصر على قدرته اللفظية لا على قدرته على الابتكار والمفاجأة، وبذلك فقدت قصيدة المدح التأثير في القارئ بعد أن فقدت فتح نوافذ للقارئ ليبر من آفاق أخرى لم يتعود عليها ولم يرها من قبل.

سار ابن خلدون في بناء قصيدة المدح على خطى من سبقوه، واتبع قواعد من نظّر لهذا الفن، فمكونات القصيدة هي ما تداولته قصائد المدح السالفة: مخاطبة الطلل المدارس، موقف الوداع للحبيبة الراحلة، وصف الرحلة إلى الممدوح، تعداد مناقب الممدوح، تطلعات المادح، فحرية الشاعر تختصر في تقديم أو تأخير بعض العناصر، أو في إعطاء أهمية خاصة لمكون على حساب باقي المكونات، عدا ذلك على الشاعر أن يسير في الإطار المرسوم مسبقاً دون أي تجاوز.

وإذا كان ابن خلدون قد حافظ على نهج البناء التقليدي لقصيدة المدح، فإن المفردات التي يتألف منها المكونات هي نفسها، ورغم أن ابن خلدون زاول حياة المدن معظم حياته، فإن معالم الحياة البدوية كما تبنت في القصائد التقليدية هي الطاغية في شعره.

فوقوف الشاعر باكيًا على طلل عفا عليه الزمن، ومخاطبة هذا الطلل، وعيّه عن الجواب، ومناشدة خليليه أن يقدرًا مشاعره ولا يلوماه على انفعاله، واهتزاز النفس وهي تعين الحبيبة وهي على وشك الرحيل. واختفاء النطق في هذا الموقف والاكتفاء بمناجاة العيون. وتهطال الدمع، ومناشدة سائق الأظعان، بالتوقف ولو للحظات لتتروى العين من منظر شَيِّقٍ مؤذِنٍ بالغياب، وتلفت المحبوب إلى الوراء وهي تقتلع من أرض الهوى، والرحيل عبر صحراء موحشة يضل فيها الدليل، ولا يسمع فيها إلا عزيف الجن، ولا يُرى إلا بحر الآل الخادع، والأرق لطيف الخيال الساري، والصبوة إلى البروق اللواعب من ديار المحبوب، والطرب للنسيم المضمخ برائحة المحبوب، والحنين إلى ربوع الجزيرة الغائرة في أعماق الذاكرة: نجد ورامة، والإشادة بمناقب المدوح المأثورة من كرم وشجاعة وتقوى ورأي حصيف، وإضفاء القوة والجسارة على أفراد جيش السلطان، والتباهي بالخيال من نسل شدقم وجديل، والنوق المجهدة التي تتابع سيرها في هذا الفضاء الموحش، كل هذه المفردات المألوفة مستمدة من معين الذاكرة المتخمة بأصوات الراحلين وليس من معين تجربة الشاعر، ولا من تجليات مكابذاته، فكأننا في جزيرة العرب قبل الإسلام لا في المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري، حتى الصور التي يعتمد عليها الشاعر في تجسيد بعض الخصائص هي صور مألوفة، ولننظر في هذه الصور المستخرجة من النص الأول:

«شموس اهتدائه»، «خلاتق يحكيها الرياض» «جرى الجود أنهارًا» «أوطأتهم فوق السماكين منزلًا» «في الحرب آساد»، «طود حلمك» «غمائم للعافين» «أرضعتهم ثدي الأماني»، وهي صور تمتح من معين الإرث الثقافي ويعجز الشاعر عن الإتيان بأي صورة من خارج الشبكة المغلقة.

إن ابن خلدون وضع نفسه في قفص الموروث، ولم يرد أن يخرج منه ليتنفس الهواء النقي والطبيعة الحية بالإضافة إلى أن النسق التعبيري يتكئ على نسق

القصيدة التقليدية، ويعود بالشعر إلى زمن سالف ويرفض إدخال أي نسمة جديدة إلى بناء شعره.

لذا فإن قصائد المدح لدى ابن خلدون كانت متوسطة الأداء في معظمها، وهي لم تستثر مخيلة من أتى بعده، ولم تمنح ابن خلدون لهجة الفخر بما أنجز، شعر بأنه أدى واجباً عليه، ولذا لم يسع إلى الاحتفاظ بمجموع شعره ليكون رسالة إلى من بعده، واكتفى بما رسب في مكامن ذاكرته وهو القليل ليؤديه إلينا كشاهد على أنه استخلص كل جهده مع حكام عصره ليحفظ له مكانة مميزة بينهم، وإذا كانت الذاكرة العربية هي الحكم في تقييم الشعر، وما يصلح أن يسكن في الذاكرة، وما لا يصلح، فإن الذاكرة تستخلص مما يمر بها من نتاج شعري على كل ما يتجاوز مناسبته، وما يغادر الزمن الذي قيل فيه ليتجاوب مع كل العصور لأنه يتضمن نسخ التجربة الإنسانية وقوانينها التي تستبطن روح الحدث الإنساني والتجربة البشرية على مر العصور، والذاكرة العربية لم يستوقفها أي نص من نصوص ابن خلدون ليكون علامة من علامات الإبداع التي تغري بالاحتذاء والمتابعة.

وإذا كان ابن خلدون قد حرم قصيدته الانطلاق إلى آفاق رحبة فإنه حين تحرر بعض الشيء من هذا الواجب الثقيل المفروض عليه، وأصغى إلى لواعج نفسه، وما خلفته الغربة وتجاذبات العمل السياسي من قلق وتشظيات في أحناء النفس أتى بشذرات تلمع فيها بروق الشعر، وتندى فيها قطرات مائه في حينه إلى معاهد صباه في تونس قبل أن تقذف به مطامحه السياسية في متاهاتها، نلمح هذا التوهج في مثل هذه الأبيات:

رَعَى اللّٰهَ عَهْدًا ضَمَّهُ أَفُقُ تُونُسِ
ومعهد أنسٍ لم ترعُهُ النَّوَابُ
بِلَادٍ بِهَا عَقُّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي
وَلَأَمَسَ فِيهَا التُّرْبَ مِنِّي التُّرَابُ

يُذَكِّرُنِي عَهْدَ الرِّضَا فِي جَنَابِهَا
أَمَّا نِ تَقَضَّتْ لِي بِهَا وَمَارِبُ
فَأَضْبُو وَلَكِنْ أَيْنَ مَنِي مَزَارُهَا؟
وَأَبْكِي وَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَنِّي السَّحَابُ!

وفي شذرة أخرى:

ذَكَرْتُكَ يَا مَغْنَى الْأَحْبَةِ وَالْهَوَى
فَطَارَتْ بِقَلْبِي أَنَّةٌ وَعَوِيلُ
وَحَيَّيْتُ عَنْ شَوْقِ رُبَاكَ كَأَنَّمَا
يُمَثِّلُ لِي نُؤْيِي بِهَا وَطَلُولُ
أَحْبَابِنَا وَالْعَهْدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
كَرِيمٌ وَمَا عَهْدُ الْكَرِيمِ يَحُولُ

وتبقى هذه الشذرات خروجاً على القاعدة واستثناء على النص، ويبقى شعر ابن خلدون في التقييم الأخير دون ما يطلبه متذوق الشعر من نصوص تجسد التجربة الإنسانية التي تعلو على العصور، لذا بقيت خارج نطاق الذاكرة العربية، يلجأ إليها المتخصصون لتبيين المواقف ولا يقصدها هواة الشعر.

ولعل أول من أشار إلى أن الشعر ليس غرضه الأساسي هو ابن خلدون نفسه وفي أحد تصريحاته ذكر ما «أجد استصعاباً في نظم الشعر» ويعلل ذلك «من قبل ما حصل من حفظي من الأشعار العلمية⁽¹⁾ والقوانين التأليفية».

وينقل تلميذه المقرئ عنه قوله: «لي بحمد الله معرفة بنقد الشعراء، ولست أرضى شعري، وما رأيته قطّ أنشد له شعراً، ولا تكثريه»⁽²⁾.

(1) مقدمة ابن خلدون: 579.

(2) درر العقود الفريدة: 403/2.

وهذا ما يهبط ببعض قصائد ابن خلدون إلى هوة شعر الفقهاء حيث الجفاف
وثقل التعبير وانعدام الانسيابية، وانطفاء الألق الشعري، نجد ذلك مثلاً في النص
رقم (11) في تهنئة سلطان الأندلس بولادة ابنه سعد. ففي مطلع القصيدة وهو البيت
الرئيس الذي يعتمد عليه الشعراء للنهوض بالقصيدة نجد هذا التهافت:

أيُّ نجمٍ لاح في أفق المعالي
أي شمسٍ أطلعت أيُّ هلالٍ

حيث تتزاحم هذه الصور: «النجم والشمس والهلال» وهي من مجال واحد
وهذا ما يفقد البيت أي إشعاع عاطفي أو أي لمسة جمالية. وقد أدرك القدماء
والمحدثون قصور باع ابن خلدون في الشعر، فابن حجر العسقلاني يضع شعر ابن
خلدون في مرتبة «وسط النظم»⁽¹⁾. ومن المحدثين يرى عمر فروخ «على شعره قدر
كبير من الجفاف وقلة الطلاوة»⁽²⁾.

ويحسب لابن خلدون في مجال الصناعة الشعرية امتلاكه لثروة لغوية ثرية
تمكن بها من أن يمتد بمساحة القصيدة إلى أمد واسع دون أن يتعثر، وحافظ على
جزالة اللغة وفخامتها وفصاحتها كما أثر عن عهود الشعر الأولى دون أن ينزلق
إلى الألفاظ الوحشية النادرة، وأثبت في مجال النحو والعروض مهارة جيدة مكنته
من الحفاظ على السلامة التعبيرية وعدم الوقوع في التجاوزات والعثرات التي وقع
فيها كثير من الشعراء في العصر الوسيط من الذين تجرأوا على النظم دون أن
تتوفر لهم الخبرة الكافية بأدوات الشعر وآلياته.

فالقصيدة المدحية لدى ابن خلدون هي نموذج للقصيدة المدحية العربية
النمطية التي قيدت نفسها بقيود منعته من الانطلاق بعد أن كسرت جناحيها

(1) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس: 159/3.

(2) تاريخ الأدب العربي: 519/6.

وغدت مقعدة، فالقصيدة المدحية بهذه التقاليد التي التزمت بها فقدت خصوصيتها أولاً إذ إن القصيدة الموجهة إلى ممدوح ما يمكن أن توجه إلى أي ممدوح آخر دون أي عائق.

فالقصيدية غادرت الواقع الحيّ بكل حرارته وخصوصيته ومفرداته المتوهجة وانتقلت إلى أفق مثالي مصطنع وخال من أي جاذبية وبخاصة عندما تبلغ الحدود العليا لهذا الأفق بحيث تُفقد هذه المبالغة المدح نيرة الصدق وتخسر بالتالي قدرتها على التأثير في نفس المتلقي.

ولكن هل كان بإمكان ابن خلدون أو أي شاعر آخر في موقع ابن خلدون أن يخرج بمدحه عن هذا الإطار المرسوم، وأن يكشف عن وجه الحقيقة الصادم، إن ثمن النطق بالحقيقة الواقع كان باهضاً لا يستطيع أي شاعر تحمله ولم يكن أمام شاعر يبحث عن موقع له في ظلال السلطة إلا أن يقول ما يريد الحاكم أن يقوله.

ولم يكن هناك خيار آخر أمام ابن خلدون، كشخص لا يمتلك أي عصبية سوى علمه. إلا أن يلبس جبة الشاعر الواعظ الذي يقدم نصائحه إلى السلطان، وكان ابن خلدون يدرك بحسه الواقعي أن الوعظ إن كان يصل إلى سمع الحاكم فإنه لا يصل إلى مركز القرار في نفسه.

وقد حاول المتنبّي في بعض مدحياته لسيف الدولة وكافور الإخشيدى إنقاذ القصيدة المدحية من هذا التخثر وإطلاقها من الحصار الذي سجنّت نفسها فيه، صحيح أن المتنبّي لم يتخلّ عن مفردات قصيدة المدح وعلاماتها البارزة، ولم يهجر المبالغة ولكنه أكسب القصيدة المدحية نكهة جديدة حين ارتفع بالمادح ليكون على طرف المساواة مع الممدوح، فلم يعد المادح مغيباً أمام شخصية الممدوح الطاغية، أو موجوداً، ولكن بدرجة متدنية عن الممدوح كمستجد أو معتذر، وهذه الثنائية في المدح أبرزت عنفوان المتنبّي وشخصيته التي تأبى الذوبان أمام الممدوح.

والاختراق الثاني أن المتبني انطلق بمعالم المدح المحددة سلفاً إلى الأفق الإنساني العام أي من حدود المعاني المتعارف عليها إلى أفق التجربة الإنسانية العامة وقوانينها الخارجة عن حدود الزمن، وبذلك تجاوز المتبني عصره وحدود عالمه الخاص ونجت قصائده المدحية من الغرق في إطار زمنها وأشخاصها المحددين لتصل إلى الإنسان في كل زمان ومكان كاشفة له عن القوانين التي تنظم السلوك الإنساني عامة، وبذلك احتفظت الذاكرة العربية بهذه القصائد ترددها في كثير من المناسبات وهوت الكثير من قصائد المدح الأخرى في عتمة النسيان.

القصاصند

(1)

قال يخاطب سلطان المغرب أبا عنان⁽¹⁾ ويستعطفه بعد أن ألقى به في السجن⁽²⁾:

[الطويل]

عَلَى أَيِّ حَالٍ لِلْيَالِي أُعَاتِبُ
وَأَيِّ صُرُوفٍ لِلزَّمَانِ أُغَالِبُ
كَفَى حَزَنًا أَنِّي عَلَى الْقُرْبِ نَازِحُ
وَأَنِّي عَلَى دَعْوَى شُهُودِي غَائِبُ
وَأَنِّي عَلَى حُكْمِ الْحَوَادِثِ نَازِلُ
تَسَالُمْنِي طَوْرًا وَطَوْرًا تُحَارِبُ
أَجِنُّ إِلَى الْإِنْفِي وَقَدْ حَالَ دُونَهُمْ
مَهَامُهُ فَيُحُّ دُونَهُنَّ سَبَابِيبُ
وَبَيْدَاءٍ قَفَرٍ غَيْرَتْهَا يَدُ الْبَلِي
وَأَزْرَتْ بِمَغْنَاهَا الصَّبَا وَالْجَنَائِبُ
بِهَا لِعَزِيفِ الْجِنِّ أَيُّ تَرَاجُعِ
وَبَيْنَ الرِّيَّاحِ الْهُوجِ فِيهَا تَلَاعِبُ

(1) أبو عنان المريني، فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني. ولد بفاس سنة 729 هـ، وولاه أبوه إمارة تلمسان، ثم ثار على أبيع وبويج بالسلطنة سنة 749 هـ. قاتل بني عبدالواد واستولى على تلمسان، ثم تمكن من الاستيلاء على قسنطينة وتونس، ولكنه عاد إلى فاس بعد أن شعر بمؤامرة عليه من بعض قواده فقتلهم، ثم مرض فدخل عليه وزيره الحسن بن عمر وخنقه سنة 759 هـ (الأعلام: 127/5).

(2) ذكر ابن خلدون من هذه القصيدة في ترجمته خمسة أبيات فقط.

يَضِلُّ بِهَا الْخَرِيْتُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
فَيَصْرِفُهُ بَحْرٌ مِنَ الْأَلِ رَاسِبٌ
سَلَوْتَهُمْ إِلَّا الذِّكَارَ مَعَاهِدِ
لَهَا فِي اللَّيَالِي الْغَابِرَاتِ غَرَائِبُ
وإنَّ نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْهُمْ يَشُوقُنِي
إِلَيْهِمْ وَتُضْبِئِنِي الْبُرُوقُ اللَّوَاعِبُ
وَلَمْ أَنْسَ، لَا أَنْسَى الْوَدَاعَ وَقَدْ جَرَّتْ
دُمُوعٌ وَرُمَّتْ لِلْوَدَاعِ رَكَائِبُ
عَشِيَّةَ بَانُوا وَالْقُلُوبُ جَوَامِدُ
وَكَانَ عَقِيْقُ فِي النُّوَظِرِ ذَائِبُ
وَقَفْنَا وَلَا نَجْوَى سِوَى بَيْنِ أَعْيُنِ
وَشَتَّ بِالْهَوَى مِنْهَا دُمُوعٌ سَوَاكِبُ
تُخَاطَبُ رَسْمَ الدَّارِ شَوْقًا وَمَا لَنَا
عَلَى الْقُرْبِ إِلَّا مِنْ صَدَاهَا مُجَاوِبُ
مَضَوْا يُرْمِعُونَ السَّيْرَ إِلَّا تَلْفُتًا
كَمَا التَّفَتَّتْ بَيْنَ الْأَرَكَ الرَّبَّارِبُ⁽¹⁾
وَأَتَبَعْتُهُمْ طَرْفِي وَقَلْبِي وَمَا دَرَوْا
بِأَنِّي عَلَى أَثَارِ هَذِينَ ذَاهِبُ
وَمَا رَاعَنِي إِلَّا الْمَآقِي تَحَدَّرَتْ
بِهِنَّ قُلُوبٌ فِي الدُّمُوعِ ذَوَائِبُ
وَقَدْ طَوَيْتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ بِأُفُقِهَا
كَمَا نَشَرَّتْ لَيْلٍ مِنْهَا ذَوَائِبُ

(1) الربارب: جمع ربرب، قطيع الظباء والبقر.

وَسِرْنَا وَتَرْجِيْعُ الْحُدَاةِ يَحْتُنَّا
 كَمَا رَجَعَ الْإِنْجِيلُ فِي الصُّبْحِ زَاهِبٌ
 نَمِيلُ عَلَى الْأَكْوَارِ سُهْدًا كَأَنَّا
 نَشَاوَى مُدَامَ أَنْحَلْتَهَا الْحَقَائِبُ⁽¹⁾
 أَقُولُ لِصَحْبِي - وَالظُّعَانُ تَرْتَمِي
 وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَى وَالنَّجَائِبُ
 وَقَدْ ظَمِئَتْ مِنَّا الْمَطِيُّ وَأَظْلَمَتْ
 نُجَى خَفِيَتْ فِيهَا عَلَيْنَا الْمَذَاهِبُ
 رُدُّوا لَيْسَ يَزُونَا الْغَمَامُ وَهَذِهِ
 دُمُوعِي لَا يَظْمَأُ بِهَا بَعْدُ شَارِبُ!
 وَإِنْ يَكُ بِالشُّهْبِ اهْتِدَاءٌ فَهَذِهِ
 بِصَدْرِي شُهْبٌ لِلْغَرَامِ ثَوَاقِبُ
 رَعَى اللَّهُ عَهْدًا ضَمَّهُ أَفُقُ تُونُسِ
 وَمَعَهْدَ أَنْسِ لَمْ تَرْعُهُ النَّوَائِبُ
 وَجَادَتْ عَلَيْهِ الْغَانِيَاتُ بِمَا حَوَتْ
 مِنَ الظُّلْمِ⁽²⁾ لَا مَا تَحْتَوِيهِ السَّحَائِبُ
 وَرَوْضَ مِنْهَا كُلُّ قَطْرِ بِأَغْصَنِ الدِّ
 قُدُودِ اللُّوَاتِي لَمْ تُثْرَهَا الْأَهَاضِبُ⁽³⁾
 بِبِلَادٍ بِهَا عَقُّ الشُّبَابِ تَمَائِمِي
 وَلَا مَسَّ فِيهَا الثُّرْبَ مِنِّي التَّرَائِبُ⁽⁴⁾

(1) الحَقَائِبُ: جمع حَقْبَة، مَدَّة من الدَّهْرِ.

(2) الظُّلْمُ: الرِّيقُ

(3) الأَهَاضِبُ: جمع أَهْضُوبَة، المَطْرَة الدَّائِمَة العَظِيمَة القَطْرِ.

(4) التَّرَائِبُ: جمع تَرِيْبَة، عِظَام الصَّدْرِ.

يُذَكِّرُنِي عَهْدَ الرِّضَا فِي جَنَابِهَا
أَمَانٍ تَقَضَّتْ لِي بِهَا وَمَارِبُ
فَأُضْبُو وَلَكِنْ أَيْنَ مِنِّي مَرَارَهَا؟
وَأَبْكِي وَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَنِّي السَّحَابُ!
وَيُقْلِقُنِي شَوْقُ تَضْرَمِ بِالْحَشَا
فَتُحْرِقُنِي لَوْلَا الدُّمُوعُ لَوَاهِبُ
أَبَيْتُ تُنَاجِيَنِي الِهْمُومُ كَأَنِّي
صَدِيقُ عَفَا فِي الْحُبِّ وَهِيَ تُعَاتِبُ
وَإِنْ قَمْتُ غَنَّتَنِي قِيَانُ أَدَاهِمُ
لَهَا بَيْنَ أَقْدَامِ الْكُمَاةِ مَلَاعِبُ
وَقَدْ أَمْتَطِي فِكْرِي لَدَى اللَّيْلِ مَرْكَبًا
بِذِكْرِ الَّذِي تُحْدِي إِلَيْهِ الرِّكَائِبُ
وَأَعِشُوا إِلَى مَدْحِ الْخَلِيفَةِ فَارِسِ
فَتَنجَابَ عَنِّي لِلْخَطُوبِ غِيَاهِبُ
إِمَامٌ هَدَى ضَاءَتِ شَمُوسُ اهْتِدَائِهِ
فَبَانَتْ لَنَا مِنْ بَيْنِهِنَّ الْمَذَاهِبُ
تَرَقَّرَقَ مَاءُ الْبِشْرِ فِي صَفْحَاتِهِ
وَأَيْنَعَ مِنْهُ الْمَجْدُ فَالْحُلُّ عَاشِبُ
وَأَوْسَعَ أَبْنَاءَ الزَّمَانِ نَوَالَهُ
فَلَيْسَ سِوَى مِمَّنْ يُنْوَلُ كَاسِبُ
خَلَائِقُ يَحْكِيهَا الرِّيَاضُ بِدَائِعَا
فَتُعْزَى لَهُ إِنْ حَقَّقَ الْقَوْلَ نَاسِبُ

جَرى الجودُ أنهارًا بكفِّيه عذبةً
[و] ما تلك في الراحة منها مشاربُ
وسارَ على الأفاق طيبُ ثنائه
فما المسكُ لولا عَرْفُه المتطايِبُ
وأشرقَت الدنيا بنور جبينه
فما الشمسُ إلا أن بدا منه حاجبُ
مناقبُ تحكي الشهبَ ضوءًا ورفعةً
فيسري بها في مهمه الخطبِ راكبُ
ففكرُ إذا ما أظلمَ الخطبُ نيِّرُ
وفهمُ إذا ما أشكلَ العلمُ ثاقبُ
وهمةٌ من لم يجعلِ الإرثَ وحدهُ
طريقَ العُلَى حتى استتمَّت مناصبُ
تَراحمُ تيجانُ الملوكِ ببابه
كما ازدحمت بالدارعينَ المواكبُ
وتفخرُ من مَلِكٍ أغرَّ مهذبُ
ثقيلُ المراقبي عنده والمناصبُ
جبرتَ عمادَ الدينِ بعد انصداعه
على حين لم يجبرُ له الصدعُ شاعبُ
وملَّت عن الدنيا إلى الدينِ راغبًا
على رغبةٍ منها فنِعَمَ المرابِبُ
وشيَّدتَ فخرًا في دُوابِةٍ معشرِ
نمتكُ إلى العلياء منهم عصائبُ

ومَهَّدتْ رُكْنَ المُلْكِ مِنْكَ بِعِزْمَةٍ
تَذُبُّ بِهَا عَنْهُ الحِمَاءُ الضَّوَارِبُ
وَدَوَّخَتْ أَرْضَ الغَرْبِ حَتَّى تَسَابَقَتْ
لَأَمْرِكَ طَوْعًا عُجْمُهُ والأَعَارِبُ
فَأَوْطَأَتْهُمُ فَوْقَ السَّمَاكِينِ مَنزِلًا
فَلَيْسَ لَهُمُ إِلَّا هُنَاكَ مَرَاتِبُ
وَلَمَّا طَغَى بِالشَّرْقِ كُلُّ مَكْدَبٍ
عَصِيٍّ تُنَاجِيهِ الأَمَانِيُّ الكَوَاذِبُ
وَيُخْلُو عَلَى بَعْدِ الدِّيَارِ بِنَفْسِهِ
فَتَعَصِيهِ مِنْ طَعْنِ العِدَا مَا يُطَالِبُ
بِدَأْتَهُمْ بِالقَوْلِ لَوْ أَنَّ سَعِيَهُمْ
حَمِيدٌ لَمَا سَاءَتْ لَدِيهِمْ عَوَاقِبُ
وَلَكِنْ أَبَوْا إِلَّا جَمَاحًا وَمَا دَرَوْا
بِأَنَّكَ حِزْبُ اللّهِ وَاللّهُ غَالِبُ
وَلِجُّوا عَلَى ظَنِّ بَأْنِ حِصُونِهِمْ
مَمْنَعَةٌ لَوْ أَنَّ غَيْرَكَ طَالِبُ
فَسُئِمْتَهُمْ بِالرَّعْبِ قَبْلَ نِزَالِهِمْ
فَقُلْتُ جَمُوعٌ مِنْهُمْ وَمَضَارِبُ
وَأرْسَلْتَهُمْ مِنْ آلِ أَعْوَجَ غُلَبٍ
عَلَيْهَا مِنَ الأَبْطَالِ شُوسُ أَعَالِبُ
مِنَ القَوْمِ مَا غَيْرُ القَنَا فِي طَرِيقِهِمْ
أَنْيَسُ وَلَا غَيْرُ المَهْتَدِ صَاحِبُ

إذا أظلمت جُنْحَ النهارِ دروعُهُم
أضاءت وجوهُ منهمُ ومناقبُ
وإن ضلَّ في ليل الكفاحِ دليُّهم
هدتهم من العزمِ الصميمِ كواكبُ
بأيديهمُ سُمُرُ الرماحِ كما على
عواتقهم بيضُ السيوفِ القواضبُ
فذاك أصمُّ يبلغُ الطعنُ للعدا
وهذا سميعٌ إن تناجى الكتائبُ
غمائمُ للعافينَ تهتنُ ضيِّبُ
وفي عَرَصاتِ المارقينَ مصائبُ
ففي الحربِ أسادُ وفي السلمِ سادَّةُ
ويومَ النُّدا والمَكْرُماتِ سحائبُ
نَدبَتَهُمُ لله ثم بعثتَهُم
تُقَامُ على الأعداءِ منهم نوادبُ
وسِرتَ فلولا أن أمرَكَ وازعُ
لَسارتِ جبالُ عندها وأهاضبُ
وريعوا فلولا طودُ جلمِكَ قد رسا
لَزُعزعَ من ذاك الأشمِّ جوانبُ
بجيشٍ يغصُّ الأفقُ منه بمركبٍ
ويعجز عن حصرِ الكتيبةِ حاسبُ
يُبأحُ جمى الأفلاكِ عند فريقيهم
وتُنهبُ إن أومى إلى الشهبِ ناهبُ

أُثِرَتْ بِهِمْ فَوْقَ الْأَعَادِي مَصَائِبًا
مِنَ النَّقْعِ جِدْوَاهَا السَّهَامُ الصَّوَابُ
وَجُسُتَ عَلَى رَغَمٍ خِلَالَ دِيَارِهِمْ
تُعَطَّرُ بِالْأُرْدَانِ مِنْكَ مَسَاحِبُ
فَلَوْلَا اعْتِصَامُ كَانَ مِنْهُمْ بِطَاعَةٍ
لَأَغْرَقَهُمْ طُوفَانُكَ الْمِتْرَاكِبُ
وَلَا انْتَضَى جَبَّارُ تُونِسَ عَزْمَةً
وَرَامَ فِرَارًا لَوْ نَجَا مِنْكَ هَارِبُ
بَعَثَتْ بِهَا غَرِبَانَ زَجِرٍ يَحْتَثُّهَا
لِتَفْرِيقِ شَمَلٍ مِنْ أَعَادِيكَ نَاعِبُ
وَمُلِّكَتَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا كَأَنَّمَا
لِأَمْرِكَ مِنْ جَارِيِ الْمَقَادِيرِ صَاحِبُ
وَلَوْلَا خُطُوبُ كُنْتَ حَاسِمَ دَائِهَا
لَقَدْ عَلِمُوا كَيْفَ الْغَرِيمُ الْمَطَالِبُ
أَمْوَالِي طَابَ الْقَوْلُ لِي فَأَطْلُتُهُ
وَمَا طَيَّبَ الْأَقْصَالَ إِلَّا الْأَطْيَابُ
وَمَا كَانَ لِي نِظْمُ الْقَرِيضِ بِضَاعَةً
وَلَكِنْ دَعَانِي نَحْوِ مَدْحِكَ جَاذِبُ
فَجِئْتُ بِهَا حَسَنَاءَ تَلْتَمِسُ الرِّضَا
وَإِنْ رَغَمَ الْوَاشُونَ مِنْهَا وَشَاغِبُوا
فَعَفَوًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَيسَ لِي
يَدَانِ بِسَخَطِ مِنْكَ وَالصَّبْرُ عَازِبُ

أَسَاقُ مَدَى الْأَيَّامِ فِي الْقَيْدِ مُفْعَمٌ
وَجِسْمٌ عَلِيلٌ بَعْدَ ذَلِكَ شَاحِبٌ؟
وَقَدْ وَضَحْتَ لِلْجِلْمِ فِي كُلِّ طَيِّعٍ
وَعَاصٍ شَرُودٍ عَنْكَ طُرُقٌ لَوَاحِبٌ
وَأَرْضَعْتَهُمْ ثَدْيِي الْأَمَانِي وَكَمْ بَغَا
وَأوردتَهُم صَفْوَ الْأَمَانِي وَحَارِبُوا
أَبَى اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ الْعَلَا
تُنِيلُ السُّورَى عَفْوًا فَتُعْفَى الْمَعَايِبُ
وَإِنْ أَثَبْتَ الْأَعْدَاءُ أَنْيَ مَذْنِبٌ
فَصَفْحُكَ يَا مَوْلَايَ لِلذَّنْبِ سَالِبٌ
وَهَبَّهْم رَمُونِي بِالَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا
أَلَيْسَ انْتِسَابِي وَاضِحٌ مُتَنَاسِبٌ
أَبْعَدَ انْتِزَاحِي عَنِ بِلَادِي تَحْتَنِي
إِلَى بَابِكَ الْأَعْلَى مَطِيئِي شَوَازِبُ
وَعِرَاءُ مِنْ نَسْلِ الْجَدِيلِ وَشَدَقَمٌ⁽¹⁾
لَهَا فِي الرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ مَنَاسِبُ
يُجَاذِبُ عِطْفِيَّهَا الْمِرَاحُ فَتَنْتَنِي
كَمَا التَّفْتَتُ فِي الرُّوَضِ حَسَنَاءُ كَاعِبُ
وَتَكْبَرُ قَدْرًا أَنْ يَمِيلَ بِمِثْلِهَا
لِغَيْرِكَ قَصْدًا أَوْ تَحْنٌ مَطَالِبُ
رَقِمْتُ بِهَا فِي صَفْحَةِ الْبَيْدِ أَسْطَرًا
كَمَا زَانَ رَقْمًا فِي الصَّحِيفَةِ كَاتِبُ

(1) الجدِيلُ وَشَدَقَمٌ: فُرْسَانُ مَشْهُورَانِ لِلنَّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ.

وَجُبْتُ بِهَا غُورَ الْفَلَاحِ وَنَجْدَهَا
وَلَيْسَ سِوَى مَنْ ذَنْبُهَا مَا أُصَاحِبُ
كَأَنِّي لَفِظٌ وَالْبِلَادُ تَجِيبُنِي
خُوطِرٌ مِنْهَا لِلْمَعَانِي صَوَائِبُ
تَظُنُّ بَأْنَ الشَّرْقِ عَنْ حَمَلِ كَتْمِهِ
يَضِيقُ فَتَطْوِي سِرَّهِنَّ الْمَغَارِبُ
إِلَى أَنْ حَطَطْتُ الرَّحْلَ فِي سِرْحَةِ الْعَلَا
لَدَى بَابِكَ الْأَعْلَى كَمَا حَطَّ آيِبُ
وَأُصْدِرْتَنِي عَنْ وَرْدِ نُعْمَاكَ نَاهِلَا
وَقَدْ أَثْقَلْتُ ظَهْرِي لَدَيْكَ الْمَوَاهِبُ
فَكَيْفَ أَوْلِي شَطْرَ غَيْرِكَ وَجِهَةً
أَوْ مَلَّ مِنْهَا نَجْعَةً أَوْ أَرَاقِبُ
وَمَا خُلُصْتُ إِلَّا لِبَابِكَ هَجْرَتِي
وَلَمْ تَصْفُ لِي مِمَّنْ سِوَاكَ الْمَشَارِبُ
وَإِنِّي عَلَى عِلْمٍ بِأَنْ لَا مُمَالِكَ
سِوَاكَ عَلَى الدُّنْيَا وَلَا عَنْكَ ذَاهِبُ
وَلَكِنْ عَوَادٍ إِنْ عَدْتَنِي عَنِ الرِّضَا
زَمَانًا فَإِنِّي الْيَوْمَ مِنْهُنَّ تَائِبُ
سَائِزُ عَمَّا أَنْتَ - وَاللَّهِ - سَاخِطُ
فَأَمْرُكَ مَحْتَوُّمٌ عَلَى الْخَلْقِ وَاجِبُ
وَأَسْطُو عَلَى الْأَيَّامِ مِنْكَ بِنُوبَةٍ
كَمَا افْتَرَسْتَنِي بَيْنَهُنَّ النَّوَائِبُ

وَتُوسِعُنِي رُحْمَاكَ أَفْضَلَ نَعْمَةٍ
تَرِيشُ بِهَا عَظْمِي وَتَتَرَى الْمَكَاسِبُ
فَمَا فِي اللَّيَالِي مِنْ ذَمِيمٍ، وَلَوْ أَتَى
إِذَا حُمِدَتْ بَعْدَ الْمَبَادِي الْعَوَاقِبُ
(نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان: 299 - 310)

(2)

وقال⁽¹⁾ ابن خلدون يخاطب السلطان أبا سالم المريني⁽²⁾ في ليلة المولد النبوي سنة 762هـ:

[الكامل]

أَسْرَفُنْ فِي هَجْرِي وَفِي تَعْدِيْبِي
وَأَطْلَنْ مَوْقِفَ عَبْرَتِي وَنَجِيْبِي
وَأَبَيْنْ يَوْمَ الْبَيْنِ وَقَفَّةً⁽³⁾ سَاعَةً
لِوَدَاعِ مَشْغُوفِ الْفُؤَادِ كَنِيْبِ
لِلْهِ عَهْدُ الظَّاعِنِيْنَ وَعَاذِرُوا
قَلْبِي رَهِيْنَ صَبَابَةٍ وَوَجِيْبِ
غَرِيْبَتِ رَكَائِبُهُمْ وَدَمْعِي سَافِحِ
فَشَرِقْتُ بَعْدَهُمْ بِمَاءِ غُرُوبِي⁽⁴⁾
يَا نَاقِعًا بِالْعَنْبِ غُلَّةَ شَوْقِهِ
رُحْمَاكِ فِي عَذْلِي وَفِي تَأْنِيْبِي

(1) وردت القصيدة أيضًا في «الإحاطة في أخبار غرناطة» وفي «التعريف بابن خلدون».

(2) أبو سالم المريني، إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني. كان أخوه أبو عثمان قد نفاه إلى الأندلس، وبعد وفاة أبي عثمان واستبداد الوزير الحسن بن عمر، عاد إبراهيم إلى المغرب، فالتفت حوله الناس وبياعه الوزير الحسن بن عمر، فاستقر في فاس وأبعد الحسن بن عمر إلى مراكش ثم قتله بعد أن تمرد عليه. ثم ثار عليه أحد وزرائه وهو عمر بن عبد الله وتمكن هذا الوزير من القبض على أبي سالم وقتله سنة 762 هـ (الأعلام: 52/1).

(3) في الإحاطة «موقف».

(4) الغروب: جمع غرب، وهو عرق في العين يسيل منه الدمع.

يَسْتَعْذِبُ الصَّبُّ الْمَلَامَ وَإِنِّي
مَاءُ الْمَلَامِ لَدِي غَيْرُ شَرِيبٍ^(١)
مَا هَاجَنِي طَرَبٌ وَلَا اِعْتَادَ الْجَوَى
لَوْلَا تَذَكُّرُ مَنْزِلٍ وَحَبِيبٍ
أَهْفُو إِلَى الْأَطْلَالِ كَانَتْ مَطْلَعًا
لِلْبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كِنَاسَ رَبِيبٍ^(٢)
عَبَثْتُ بِهَا أَيِّدِي الْبَلَى وَتَرَدَّدْتُ
فِي عِطْفِهَا لِلدَّهْرِ أَيُّ حُطُوبٍ
تَبَلَى مَعَاهِدُهَا وَإِنَّ عُهُودَهَا
لَيُجِدُّهَا نَظْمِي^(٣) وَحُسْنَ نَسِيبِي
وَإِذَا الدِّيَارُ تَعَرَّضَتْ لِمَتِيمٍ
هَزَّتْهُ ذِكْرَاهَا إِلَى التَّشْبِيبِ
إِيهِ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ
أَلْوَى بَدِينِ فِوَادِي الْمَنْهَوْبِ
لَمْ أَنْسَهَا وَالدهرُ يَثْنِي صَرْفَهُ
وَيَغْضُ طَرْفِي حَاسِدٍ وَرَقِيبِ
وَالدَّارُ مُونِقَةٌ مَحَاسِنُهَا بِمَا
لَبَسْتُ مِنَ الْأَيَّامِ كُلِّ قَشِيبِ
يَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ تَعْتَسِفُ الْفَلَاحِ
وَتُؤَاصِلُ الْإِسَادَ بِالتَّأْوِيبِ^(٤)

(1) شريب: ماء غير عذب. ووردت في «التعريف بابن خلدون» «شروب».

(2) ربيب: قطيع من بقر الوحش.

(3) في الإحاطة «وصفي».

(4) الإسَاد: سير الليل كله دون توقف، التأويب: سير النهار كله دون راحة.

مُتَهافتًا عن رحلٍ كُلِّ مُذَلِّلٍ
نشوانٍ من أَيْنٍ وَمَسِّ لُغُوبٍ⁽¹⁾
تتجاذبُ النَفحاتُ فَضْلَ رِداءِهِ
في مُلتَقاهِها من صَبًّا وَجَنُوبٍ
إن هَامَ من ظَمًا الصَّبابةِ صَحْبُهُ
نهَلُوا بِمُورِدِ دَمْعِهِ المِسكُوبِ
أو تَعْتَرِضُ مَسْرَاهِمُ سُدْفِ الدَّجَى
صَدَعُوا الدَجَى بِغِرامِهِ المَشْبُوبِ
في كُلِّ شِعْبٍ مُنْيَةٌ من دُونِها
هَجْرُ الأَمانيِ أو لِقائِ شَعُوبِ
هَلَا عَطَفَتْ صُدُورُهُنَّ إِلى التِّي
فِيها لُبَّانَةٌ أَغْيُنٌ وَقُلُوبِ
فَتَوُومٌ مِنْ أَكْنافٍ يَثْرِبُ مَأْمَنًا
يَكْفِيكَ ما تَخْشاهُ مِنْ تَثْرِيْبِ
حَيْثُ النُّبُوَّةُ أَيُّها مَجْلُوءَةٌ
تَنْلُومِ مِنَ الأَثارِ كُلِّ غَرِيبِ
سِرٌّ غَرِيبٌ⁽²⁾ لَمْ يُحَجِّبْهُ التُّرَى
ما كانَ سِرُّ اللّهِ بِالمَحْجُوبِ

ومنها بعد تمديد معجزاته والإطناب في مدحه:

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الكِرَامِ صَرَاعَةً
تَقْضِي مَنى نَفْسِي وَتُذْهِبُ حُوبِي⁽³⁾

(1) الأين واللغوب: التعب والإعياء.

(2) في التعريف بابن خلدون «عجيب».

(3) الحوب: الإثم.

عَاقَتْ ذُنُوبِي عَنْ جَنَابِكَ وَالْمُنَى
فِيهَا تُعَلِّمُنِي بِكُلِّ كَذُوبٍ
لَا كَالْأَلَى صَرَفُوا الْعَرَائِمَ لِلتَّقَى
فَاسْتَأْثَرُوا فِيهَا بِخَيْرِ نَصِيبٍ
لَمْ يُخْلَصُوا لِلَّهِ حَتَّى فَرَّقُوا
فِي اللَّهِ بَيْنَ مَضْجَعٍ وَجُنُوبٍ
هَبْ لِي شَفَاعَتَكَ الَّتِي أَرْجُو بِهَا
صَفْحًا جَمِيلًا عَنْ قَبِيحِ ذُنُوبِي
إِنَّ النُّجَاةَ وَإِنْ أَتَيْحَتْ لِأَمْرِي
فَبِفَضْلِ جَاهِكَ لَيْسَ بِالتَّسْبِيبِ
إِنِّي دَعَوْتُكَ وَاثَقًّا بِإِجَابَتِي
يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَخَيْرَ مُجِيبِ
قَصَّرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنْ يَكُ طَيِّبًا
فَبِمَا لَذَكَرَكَ مِنْ أَرِيحِ الطَّيِّبِ
مَاذَا عَسَى يَبْغِي الْمُطِيلُ وَقَدْ حَوَى
فِي مَدْحِكَ الْقِرْآنُ كُلُّ مَطِيبِ
يَا هَلْ تُبَلِّغُنِي اللَّيَالِي زُورَةً
تُدْنِي إِلَيَّ الْفُوزَ بِالْمَرْغُوبِ
أَمْ حَوْطِيئَاتِي بِإِخْلَاصِي بِهَا
وَأَحْطُ أَوْزَارِي وَإِضْرَ ذُنُوبِي
فِي فِتْنِيَةِ هَجَرُوا الْمُنَى وَتَعَوَّدُوا
إِنْضَاءَ كُلِّ نَجِيبَةٍ وَنَجِيبِ

يطوي صحائفَ ليلهم فوق الفلا
 ما شئتَ من حَبَبٍ ومن تقريبٍ⁽¹⁾
 إن رثمَ الحادي بذكرك ردّوا
 أنفاسَ مُشتاقٍ إليك طُروبٍ
 أو غرّدَ الرُّكْبُ الخَلِيّ بطيبةٍ
 حَنّوا لَمَغْنَاهَا حنينَ النّيبِ
 ورثوا اعتسافَ البيدِ عن آبائهم
 إرثَ الخِلافَةِ في بني يعقوبٍ⁽²⁾
 الطاعنون الخيلَ وهِي عوابسُ
 يَغشى مُثارُ النّقعِ كلُّ سَبيبٍ⁽³⁾
 والواهبون المَمَقْرِبَاتِ هواتنًا
 من كل خِوَارِ العِنانِ لَعوبِ
 والمانعون الجارَ حتى عَرَضُهم
 في منتدى الأعداءِ غيرُ مَعيبِ
 تُخشى بوادِهم ويُزجى جِلْمُهم
 والعِزُّ شِيمَةٌ مُرتجى ومَهيبِ

....

سائلٌ به طامي العُبابِ وقد سرى
 تُزجى بريحِ العِزْمِ ذاتُ هُبوبِ

(1) الخَبِيبِ والتقريب: نوعان من السير السريع.

(2) بنو يعقوب: المرينيون سلاطين المغرب.

(3) سَبِيب: شعر ذنب الفرس أو شعر عَرَفَه.

تهديه شُهْبُ أُسِنَّةٍ وَعِزَائِمِ
يَصُدَّعْنَ لَيْلَ الْحَادِثِ الْمَرْهُوبِ
حتى انجلتْ ظُلْمُ الضَّلَالِ بِسَعِيهِ
وسطا الهُدَى بفريقها المغلوبِ
يا ابنَ الألى شادوا الخلافة بالتُّقى
واستأثروك بتاجها المعصوبِ
جمعوا بحفظ⁽¹⁾ الدينِ آيِ مناقبِ
كرموا بها في مَشْهَدٍ وَمَغِيبِ
لله مجدك طارفاً أو تالداً
فلقد شهدنا منه كلَّ عَجِيبِ
كم رهبةٍ أو رغبةٍ لك⁽²⁾ والعللا
تُقْتَادُ بِالترغيبِ والترهيبِ
لا زلتَ مسروراً بأشرفِ دولتهِ
يبدو الهُدَى من أفقها المرقوبِ
تُحيي المعالي غادياً أو رائحاً
وجديداً⁽³⁾ سعدك ضامنُ المطلوبِ
(نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب: 316/8 – 319)

(1) في التعريف بابن خلدون «لحفظ».

(2) في التعريف بابن خلدون «بك».

(3) في التعريف بابن خلدون «وحديد».

(3)

وقال مهنتاً⁽¹⁾ سلطان الأندلس الغني بالله⁽²⁾ بختان ولده سنة 765هـ:

[الطويل]

صحا الشوقُ لولا عَبرةٌ ونَحيبُ
وذكرى تُجِدُّ الوجدَ حينَ تَثوبُ
وقلبُ أبى إلا الوفاءَ بعهدِهِ
وإن نَزحت دارٌ وبنانَ حبيبِ
ولله مني بعد حادثَةِ النوى
فوَادٌ لِتذكِارِ العهودِ طرُوبُ
يُورِّقُهُ طيفُ الخيالِ إذا سَرى
وتُذَكِّي حَشاهُ نَفحةٌ وهُبوبُ
خليليَّ إلا تُسعدا فدعا الأسي
فإني لما يدعو الأسي لَجيبُ
ألما على الأطلالِ يَقضِ حقوقَها
من الدمعِ فيأضُ الشؤونِ سَكوبُ
ولا تعذلاني في البكاءِ فإنها
حُشاشةٌ نفسي في الدموعِ تَدُوبُ

(1) لم ترد هذه القصيدة إلا في «التعريف بابن خلدون».

(2) الغني بالله (739-793 هـ)، محمد بن يوسف بن إسماعيل، ثامن ملوك بني نصر في الأندلس، ولي بعد وفاة أبيه سنة 755 هـ، وانقلب عليه أخوه إسماعيل واستولى على الحكم ففرَّ محمد إلى المغرب ثم ساحت له الفرصة واستعاد الحكم من أخيه وكان وزيره لسان الدين ابن الخطيب لفترة ثم انقلب عليه ونكبه. (الأعلام: 153/7).

فَيَمَمُّ مِنْهُ الْحَفْلَ لَا مُتَقَاعَسُ
لخَطْبٍ وَلَا نِكْسُ الْإِقَاءِ هَيُوبُ
وراح كما راح الحسام من الوغى
تروق حُلاه والفرند خضيبُ
شواهدُ أهدتهنَّ منك شمائلُ
وخلُقُ بصفو المجد منك مشوبُ
هما النيران الطالعان على الهدى
بآيات فتح شأتهنَّ عجيبُ
شهابان في الهيجا غمان في الندى
تسبحُ المعالي منهما وتصبُ
يدان لبسط الكرمات نَمَاهَا
إلى المجد فيأضُ اليدين وهُوبُ

(التعريف بابن خلدون: 88 - 89)

(4)

وأنشد⁽¹⁾ سلطان تلمسان أباحمو⁽²⁾ مهنتاً له بعيد الفطر⁽³⁾:

[الكامل]

هذي الديارُ فحيهنَّ صباحاً
وقِفِ المطايا بينهنَّ طِلاحاً⁽⁴⁾
لا تَسألِ الأطلالَ إن لم تَرُوها
عَبراتُ عينك واكفًا مُمتاحاً
فلقد أخذنَ على جُفونك مَوثِقاً
أن لا يُرِينَ مع البِعَادِ شِخَاخاً
إيهِ على الحيِّ الجميعِ رَبِّمَا
طربَ الفؤادَ لذكرهم فارتاحاً

....

ومنازلٍ للظاعنين استعجمتُ
حُزناً وكانت بالسُرورِ فصاحاً

(التعريف بابن خلدون: 133)

(1) لم ترد هذه الأبيات إلا في «التعريف بابن خلدون».

(2) أبوحمو (723 - 791 هـ)، موسى بن يوسف بن عبدالرحمن بن يحيى بن يغمراسن. ولد في غرناطة، وانتقل إلى تلمسان مع أبيه في سنة ولادته وشهد زوال دولتهم الأولى سنة 737 هـ، وخرج مع أبيه إلى تونس وأعانهُ بنوحفص على استرجاع دولته من بني مرين، ثم انشق عنه ابنه واستعان ببني مرين ودارت معركة قتل فيها أبوحمو، له كتاب: واسطة السلوك في سياسة الملوك» وله عدد من القصائد (الأعلام: 331/7).

(3) يذكر ابن خلدون أن هذه الأبيات من قصيدة طويلة، ولم يبق في حفظه منها سوى هذه الأبيات.

(4) طلاح: الناقة أجهدها طول السفر.

(5)

قال⁽¹⁾ مخاطباً سلطان المغرب أبا سالم عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها «الزرافة»:

[الكامل]

قدحتُ يدُ الأشواقِ من زَندي
وهفت بقلبي زفرةً الوجودِ
ونبذتُ سُلوانِي على ثِقَّةِ
بالقربِ فاستبدلتُ بالبُعدِ
وَلَرُبُّ وَضَلٍ كُنْتُ أَمُّهُ
فاعتَضتُ منه بمؤلِمِ الصَّدِّ
لا عَهْدَ عندَ الصَّبرِ أطلبه
إنَّ الغرامَ أضاع من عهدي
يلحَى العذُولُ فما أعتفُّه
وأقولُ ضلُّ فأنبتني رُشدي
وأعارضُ النِّفحاتِ أسألها
بِردِ الجَوى فتزِيدُ في الوَفْدِ
يَهْدِي الغرامُ إلى مَسالكها
لِتَعْلِي بِضعيفٍ ما تُهدي

(1) وردت القصيدة أيضاً في «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وفي «نفع الطيب».

يا سائق الأظعان⁽¹⁾ معتسفاً
طبي الفلاة لطيبة الوجد
أرج الركاب ففي الصبا نبأ
يغني عن المستنة الجرد
وسل الربوع برامة حبراً
عن ساكني نجد وعن نجد
مالي تلام على الهوى خلقي
وهي التي تآبى سوى الحمد
لأبيت إلا الرشد مُدّ وضحت
بالمستعين⁽²⁾ معالم الرشد
نعم الخليفة في هدى وتقى
وبناء عر شامخ الطود
نجل السرة الغر شأنهم
كسب العلاء بمواهب الوجد
لله مني إذ تأوبني
زكراه وهو بشاهق فرد
شهم يقل بواتراً قضباً
وجموع أقيال أولي أيدي
أوزيت زند العزم في طلبي
وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظمئ مناهله
فرؤيت من عز ومن رند

(1) وردت في «الإحاطة» وفي «نفع الطيب» «الوجناء».

(2) المستعين: لقب سلطان المغرب أبي سالم.

هِيَ جَنَّةُ الْمَأْوَى لِمَنْ كَلَفَتْ
 أَمَالُهُ بِمَطَالِبِ الْمَجْدِ
 لَوْلَمْ أُعْلَلْ بِوَرْدِ كَوْثَرِهَا
 مَا قُلْتُ هَذَا جَنَّةُ الْخُلْدِ
 مَنْ مَبْلَغُ قَوْمِي وَدُونََهُمْ
 قُدُفُ النَّوَى وَتَنُوفَةُ الْبُعْدِ
 أَنِّي أَنْفَتُ عَلَى رَجَائِهِمْ
 وَمَلَكَتُ عِزَّ جَمِيعِهِمْ وَخُدِي

☆☆☆☆

وَرَقِيْمَةَ الْأَعْطَافِ حَالِيَّةِ
 مَوْشِيَّةِ بَوْشَائِعِ الْبُرْدِ
 وَخَشِيَّةِ الْأَنْسَابِ مَا أَنْسَتُ
 فِي مُوحِشِ الْبِيدَاءِ بِالْقَوْدِ⁽¹⁾
 تَسْمُو بِجِيْدٍ بِالْبَغِ صُعْدًا
 شَرَفَ الصُّرُوحِ بِغَيْرِ مَا جَهْدِ
 طَالَتْ رُؤُوسَ الشُّمُخَاتِ بِهِ
 وَلِرَبِّمَا قَصُرَتْ عَنِ الْوَهْدِ
 قَطَعْتَ إِلَيْكَ تَنَاوُفًا وَصَلْتَ
 إِسَادَهَا بِالنَّصِّ وَالْوَحْدِ⁽²⁾
 تَخُدِي عَلَى اسْتِضْعَابِهَا ذُلًّا
 وَتَبِيْتُ طُوعَ الْقِنِّ وَالْقِدِّ⁽³⁾

(1) في نفع الطيب (بالقرء).

(2) النص: حتّ الناقة لتستخرج منها أقصى سيرها، الوحد: سعة الخطوفي المشي.

(3) تخدي: تُسرع، القدّ: عنان الناقة.

بَسُوعُودِكَ اللَّائِي ضَمِنَ لَهَا
طَوَلَ الْحَيَاةَ بِعَيْشَةٍ رَغْدٍ
جَاءَتْكَ فِي وَفْدِ الْأَحَابِشِ لَا
يَرْجُونَ غَيْرَكَ مُكْرِمَ الْوَفْدِ
وَأَفْوَكَ أَنْضَاءٍ⁽¹⁾ تُقَالِبُهُمْ
أَيْدِي السُّرَى بِالغُورِ وَالنُّجْدِ
كَالطَّيْفِ يَسْتَفْقِرِي مَضَاجِعَهُ
أَوْ كَالْحَسَامِ يُسَلُّ مِنْ غَمْدِ⁽²⁾
يُتَنُّونَ بِالْحُسْنَى الَّتِي سَبَقَتْ
مَنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا جَحْدِ
وَيَرُونَ لَحْظَكَ مِنْ وَفَادَتِهِمْ
فَخِرًّا عَلَى الْأَتْرَاكِ وَالْهِنْدِ
يَا مُسْتَعِينًا جَلُّ فِي شَرْفِ
عَنْ رُتْبَةِ الْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ
جَازَاكَ رَبُّكَ عَنْ خَلِيقَتِهِ
خَيْرَ الْجَزَاءِ فَنِعْمَ مَا تُسَدِّي
وَبَقِيَتَ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا
فِي عِزَّةٍ أَبَدًا وَفِي سَعْدِ

(التعريف بابن خلدون: 74 - 76)

(1) أنضاء: جمع نضو: المهزول.

(2) ورد البيت في نفع الطيب: «كالطيف بالحسنى التي سبقت من غير إنكارٍ ولا جحدٍ» وهو خلط بين بيتين.

(6)

وقال⁽¹⁾ مهنتاً سلطان تونس⁽²⁾ عقب إبلاله من المرض:

[الكامل]

ضحكتُ وجوهُ الدهرِ بعد عُبوسِ
وتجلَّلتنا رحمةً من بُوسِ
وتوضَّحت عُررُ البشائرِ بعدَ ما اُنْ
بِهَمَّتْ فأطَلَعَهَا حُذَاةُ العيسِ
صدَّعُوا بها ليلَ الهُمومِ كأنما
صدَّعُوا الظلامَ بِجَذْوَةِ المَقْبُوسِ
فكانهم بَنُّوا حياةً في الوَرَى
نُشِرت لها الأمالُ من مَرموسِ
قَرَّتْ عيونُ الخَلْقِ منها بالتي
أضفت من النِّعماءِ خيرَ لُبُوسِ
فكان قومي نَادَمَتَهُم قَرَقَفُ
شَرَبُوا النِّعِيمَ لها بغيرِ كُؤُوسِ
يتمايلون من المَسْرَّةِ والرِّضَى
ويُقَابِلُونَ أهْلَهُ بِشُمُوسِ

(1) وردت القصيدة في «التعريف بابن خلدون» فقط.

(2) أحمد الحفصي، أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي، كان أميراً على قسنطينة، ثم ثار على السلطان خالد بن إبراهيم صاحب تونس وتولى السلطنة سنة 772 هـ وقمع الفتن، واستمر إلى وفاته في تونس سنة 796 هـ (الأعلام: 225/1).

من رَاكِبٍ وَاَفَى يُحْيِي رَاكِبًا
 وَجَالِسٍ اُنْسٍ قَادُهُ لَجَالِسٍ
 وَمُشَفِّعٍ لِّلَّهِ يُؤَنِّسُ عِنْدَهُ
 اَثْرُ الْهَدْيِ فِي الْمَعْهَدِ الْمَأْنُوسِ
 يَعْتَدُ مِنْهَا رَحْمَةً قُدْسِيَّةً
 فَيَبُوءُ لِلرَّحْمَنِ بِالتَّقْدِيسِ
 طَبِّ بِاِخْلَاصِ الدُّعَاءِ وَاِنَّه
 يَشْفِي مِنَ السِّدَاءِ الْعِيَاءِ وَيُوسِي
 يَا ابْنَ الْخَلَائِفِ وَالَّذِينَ بَنَوْهُمْ
 نُهَجْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ دُرُوسِ
 وَالنَّاصِرِ الدِّينِ الْقَوِيمِ بَعِزْمَةٍ
 طَرُدُ اسْتِقَامَتِهَا بِغَيْرِ عُكُوسِ
 هَجَرَ الْمَنَى فِيهَا وَلَذَاتِ الْمَنَى
 فِي لَذَةِ التَّهْجِيرِ وَالتَّغْلِيْسِ⁽¹⁾
 حَاطَ الرِّعِيَّةَ بِالسِّيَاسَةِ فَاَنْضُوتُ
 مِنْهُ لِأَكْرَمِ مَالِكٍ وَسَوُوسِ
 أَسَدٌ يُحَامِي عَنِ حَمِي أَشْبَالِهِ
 حَتَّى ضَاوُوا مِنْهُ لِأَمْنَعِ خَيْسِ⁽²⁾
 قَسَمًا بِمُوشِي الْبَطَاحِ وَقَدْ غَدْتُ
 تَخْتَالُ زَهْوًا فِي ثِيَابِ عَرُوسِ

(1) التهجير: السير إلى الصلاة في منتصف النهار عند اشتداد الحرِّ، التغليس: السير إلى الصلاة في الظلام.

(2) ضووا: لجأوا - خيس: مأوى الأسد.

والمائلات من الحنايا جئماً
 يُخْبِرُنَّ عَنْ طَسْمٍ وَقَلِّ جَدِيسٍ^(١)
 خُوصٌ^(٢) مُضْمَرَةُ الْبُطُونِ كَأَنَّهَا
 أَنْضَاءُ رُكْبٍ فِي الْفَلَاةِ حَبِيسِ
 وَخَزَ الْبَلَى مِنْهَا الْغَوَارِبَ وَالذُّرَى
 فَلَفَّتَنَ خَزْرًا بِالْعَيُونِ الشُّوسِ^(٣)
 لَبَقَاكَ حِرْزُ الْأَنَامِ وَعِصْمَةٌ
 وَحَيَاةُ أَرْوَاحٍ لَنَا وَنُفُوسِ
 وَلَأَنْتَ كَافِلٌ دِينِنَا بِحِمَايَةٍ
 لَوْلَاكَ ضَيِّعَ عَهْدُهَا وَتُنُوسِي
 اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا
 وَحَبَّابَكَ حَظًّا لَيْسَ بِالْمُؤَكَّوسِ
 تَعْنُو الْقُلُوبُ إِلَيْكَ قَبْلَ وَجُوهِنَا
 سَيِّانٍ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ مَرُؤُوسِ
 فَإِذَا أَقَمْتَ فَإِنَّ رُغْبَكَ رَاجِلٌ
 يُحْمِي عَلَى الْأَعْدَاءِ كُلَّ وَطِيسِ
 وَإِذَا رَحَلْتَ فَلِلْسَّعَادَةِ آيَةٌ
 تَقْتَادُهَا فِي مَوْكِبٍ وَخَمِيسِ
 وَإِذَا الْأَيْدِي فِي الْكَمَالِ تَطَابَقَتْ
 جَاءَتْ بِمَسْمُوعٍ لَهَا وَمَقِيسِ

(1) طسم وجديس: قبيلتان من العرب البائدة.

(2) خوص: غائرة العيون.

(3) الشوس: جمع شوساء: الناظرة بمؤخر العين من الغيظ.

فانعم بممالكك دولةً عاديةً
تُشقي الأعداي بالعذاب البيسِ

☆☆☆☆

واليكها مني على خجلٍ بها
عذراءٌ قد حليت بكل نفيسِ
عُذراً فقد طمس الشبابُ ونوره
وأضاء صُبْحُ الشَّيبِ عند طُموسِ
لولا عنايتك التي أوليتني
ما كنتُ أُعنى بعدها بطُروسِ
والله ما أبقت ممارسةً النوى
مني سوى مَرَسِ أَحَمَّ دَرِيسِ⁽¹⁾
أنحى الزمانُ عليَّ في الأدب الذي
دارسُته بمجامعِ ودروسِ
فَسَطَا على وفُري ورُوعٍ مأمني
واجتت من دوح النشاطِ غُروسي
ورضاك رحمتي التي أعتدتها
تُحيي مُنى نفسي وتُذهب بُوسي

(التعريف بابن خلدون: 241 - 244)

(1) المَرَس: الحبل، الأحمم: الأسود، الدريس: التالف.

(7)

وقال⁽¹⁾ يخاطب صدر الدولة الوزير عمر بن عبدالله⁽²⁾ مدبر ملك المغرب:

[الكامل]

يا سيِّدَ الفضلاءِ دعوةٌ مُشْفِقٍ
نادى لشكوى البتِّ خَيْرَ سَمِيعِ
مالي وللإقصاءِ بعد تَعَلَّةِ
بالقرب كنتَ لها أَجَلٌ شَفِيعِ
وأرى الليالي رُنُقَتْ لي صافِيًا
منها فأصبح في الأجاجِ شُرُوعِي
ولقد خَلَصْتُ إليك بِالقُرْبِ التي
ليس الزمانُ لشمْلِها بَصَدُوعِ
ووثقتُ منك بِأَيِّ وَعْدٍ صَادِقِ
إني المَحْضُونُ وأنتَ غيرُ مُضِيعِ
وسما بنفسِي للخليفة طاعةً
دون الأَنامِ هَوَاكِ قَبْلَ نُزُوعِ

(1) وردت القصيدة أيضًا في «نمح الطيب».

(2) عمر بن عبدالله الفودودي (000 - 768 هـ)، وزير داهية، خدم السلطان أبا سالم المريني، ثم سخط على السلطان فاتفق مع قائد جند النصارى على خلع السلطان وتولية تاشفين المريني مكانه، وتمكن من القبض على أبي سالم وقتله ثم خلع تاشفين وولى أبازيان مكانه وحجر عليه ثم قتله، وولى بعده عبدالعزيز بن علي فكان من الحزم أن أمر بقتل عمر. (الأعلام: 52/5).

حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم
فَصَدَدَتْهُمْ عَنِّي وَكُنْتَ مَنِيْعِي
رَغِمَتْ نَفُوسُهُمْ⁽¹⁾ بِنُجْحِ وَسَائِلِي
وَتَقَطَّعْتَ أَنْفَاسَهُمْ بِصَنِيْعِي
وَبَغَوْا بِمَا نَقَمُوا عَلَيَّ خِلَائِقِي
حَسَدًا فِرَامُونِي بِكُلِّ شَنِيعِ
لَا تُطْمَعُنَّهُمْ بِبِذْلِ فِي التِّي
قَدْ صُنَّتْهَا عَنْهُمْ بِفَضْلِ قُنُوعِي
أَنْبَى أَضَامٌ وَفِي يَدِي الْقَلَمُ الَّذِي
مَا كَانَ طَيِّعُهُ لَهُمْ بِمُطِيْعٍ؟
وَلِي الْخِصَائِصُ لَيْسَ تَأْبَى رُتْبَةً
حَسْبِي بِعِلْمِكَ ذَاكَ مِنْ تَفْرِيعِي
قِسْمًا بِمَجْدِكَ وَهُوَ خَيْرُ أَلْيَّةٍ
أَعْتَدُهَا لِفُؤَادِي الْمَصْدُوعِ
إِنِّي لَتَصْطَحِبُ الْهَمُومُ بِمُضْجِعِي
فَتَحُولُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ هَجُوعِي
عَطْفًا عَلَيَّ بِوَحْدَتِي عَنْ مَعْشَرٍ
نَفَثَ الْإِبَاءُ صَدُودَهُمْ فِي رُوعِي
أَعْدُو إِذَا بَاكَرْتُهُمْ مُتَجَلِّدًا
وَأَرْوَحُ أَعَثْرُ فِي فُضُولِ دَمُوعِي

(1) وردت في نفع الطيب: «أنوفهم».

حيرانٌ أوجسُ عند نفسي خيفةً
فتُسِرُّ في الأوهام كلَّ مَرُوع
أطوي على الزُّفَرَاتِ قلبًا أدَّه
جَمَلُ الهَمومِ تجولُ بين ضلوعي
ولقد أقول لَصَرْفِ دهرٍ رابني
بحوادثٍ جاءت على تنويع
مهلا عليك فليس خطبُك ضائري
فلقد لبستُ له أجَنُّ دروع
إني ظفرتُ بعصمةٍ من أُوحدٍ
بذِّ الجميع بفضله المجموع
(الإحاطة في أخبار غرناطة: 513/3 - 514)

(8)

وخاطب⁽¹⁾ الوزير ابن ماساي⁽²⁾، طالباً منه الشفاعة عند صهره الوزير
عمر بن عبد الله ليسمح له بالسفر:

[الطويل]

هنيئاً بصومٍ لا عداه قبولُ
وبشري بعيدٍ أنت فيه مُنيلُ
وهُنَّئَتْهَا من عزّةٍ وسعادةٍ
تتابع أعواماً بها وفصولُ
سقى الله دهرًا أنت إنسان عينه
ولا مسّ زُبْعًا في جِماك مُحولُ
فِعَصْرُكَ ما بين الليالي مواسمُ
لها غُرُرٌ ووَخَاةٌ وُحُجُولُ
وجانبُكَ المأمولُ للجود مُترَعُ
يحول عليه عالمٌ وجَهولُ
عساک وإن ضنَّ الزمانُ مُنَوّلي
فرسَمُ الأمانِي من سِوَاك مُجِيلُ

(1) وردت القصيدة أيضًا في «التعريف بابن خلدون» وفي «نفع الطيب».

(2) ابن ماساي (000 - 789 هـ)، مسعود بن عبدالرحمن بن ماساي، وزير مغربي من الدهاة استبد بالأمر وغدا يُعيّن سلاطين المغرب ثم يقتلهم أو يخلعهم فقتل موسى بن أبي عنان، ثم خلع محمد ابن المستنصر وولى الواثق بالله ثم خلعه، وبيع المستنصر بالله، وبعد أن تمكن المستنصر بالله أمر بقتل ابن ماساي (الأعلام: 218/7).

أَجِرْزَنِي فَلَيْسَ الدَّهْرُ لِي بِمُسَالِمٍ
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي فِي ذُرَاكَ مَقِيلٌ
وَأَوْلِيَنِي الْحُسْنَى بِمَا أَنَا أَمَلٌ
فَمَثَلُكَ يُؤَلِي رَاجِيًّا وَيُنِيلُ
وَوَالِلَهُ مَا رُمْتُ التَّرْحَلَ مِنْ (١) قَلِيٍّ
وَلَا سَخِطَةَ لِلْعَيْشِ فَهُوَ جَزِيلٌ
وَلَا رَغْبَةً عَنِ هَذِهِ الدَّارِ إِنَّهَا
لَطِظٌ عَلَى هَذَا الْأَنْبَامِ ظَلِيلٌ
وَلَكِنْ نَأَى بِالشَّعْبِ عَنِّي حَبَائِبُ
شَجَاهُنَّ خَطْبٌ لِلْفِرَاقِ طَوِيلٌ
يَهِيحُ بِهِنَّ الْوَجْدَ أَتَيْ نَازِحٌ
وَأَنْ فَوَادِي حَيْثُ هُنَّ حُلُولُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِنَّ الَّذِي قَدْ لَقِيَتْهُ
وَأَنْ اغْتَرَابِي فِي الْبِلَادِ يَطُولُ
تَوَارَتْ بِأَنْبَائِي الْبِقَاعُ كَأَنِّي
تُخِطِّفْتُ أَوْ غَالَتْ رِكَابِي غُولُ
ذَكَرْتُكَ يَا مَغْنَى الْأَحْبَةِ وَالْهَوَى
فَطَارَتْ بِقَلْبِي أَتْنَةٌ وَعَوِيلُ
وَحَيَّيْتُ عَنْ شَوْقِ رُبَاكَ كَأَنَّمَا
يُمَثِّلُ لِي نُؤْيِي بِهَا وَطَلُولُ

(1) في نفع الطيب، وفي التعريف بابن خلدون «عن».

أَحْبَابَنَا وَالْعَهْدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
كَرِيمٌ وَمَا عَهْدُ الْكَرِيمِ يَحُولُ
إِذَا أَنَا لَمْ تُرَضِ الْحُمُولُ مَدَامَعِي
فَلَا قَرَّبْتَنِي لِلِقَاءِ حُمُولُ
إِلَامٌ مُقَامِي حَيْثُ لَمْ تُرِدِ الْعُلَى
مُرَادِي وَلَمْ تُعْطِ الْقِيَادَ ذَلُولُ؟
أَجَاذِبُ فَضْلَ الْعَمْرِ يَوْمًا وَلَيْلَةً
وَسَاءَ^(١) صَبَاحُ بَيْنِهَا وَأَصِيلُ
وَيَذْهَبُ بِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْمَعِ
زَمَانُ بَنِيْلِ الْمَعْلَوَاتِ بِخَيْلِ
تُعَلِّلَنِي عَنْهُ أَمَانَ خَوَادِعُ
وَيُؤَيِّسَنِي^(٢) لِيَّانُ مِنْهُ مَطْوَلُ
أَمَا لِلْيَالِي لَا تَرُدُّ خُطُوبَهَا
فَفِي كَبْدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ
يُرَوِّعُنِي مِنْ صَرْفِهَا كُلِّ حَادِثٍ
تَكَادُ لَهُ صُومُ الْجِبَالِ تَزُولُ
أُدَارِي عَلَى الرَّغْمِ الْعِدَى، لَا لَرِيبَةٍ
يُصَانَعُ وَاشٍ خَوْفَهَا وَعَذُولُ
وَأَغْدُو بِأَشْجَانِي عَلِيًّا كَأَنَّمَا
تَجُودُ بِنَفْسِي زَفْرَةٌ وَغَلِيلُ
وَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ
تُحِيلُ اللَّيَالِي سَلُوتِي وَتُدِيلُ^(٣)

(1) في المصدر «مساء» والتصحيح من «التعريف بابن خلدون» ص 78.

(2) في المصدر «يؤنسيني» وهو تحريف والتصحيح من «التعريف بابن خلدون».

(3) في نفع الطيب «وتزِيل».

وصدّتنني الأيامُ عن خير منزلٍ
 عهدتُ به ألاّ يُضامَ نزيل
 لأعلمُ أن الخيرَ والشرَّ ينتهي
 مَداهُ وأن الله سوف يُديل
 وأنني عزيزُ بابنِ ماسايٍ مُكثِرُ
 وإن هان أنصارُ وبيان خليل
 حططتُ رحالي في جنابك أويّا
 إلى حيث يُرعى للغريب دخيل
 بحيثِ جُمى العِزُّ الذي بذمّامه
 بدائعُ سُـوَالٍ، ويُـلِّغُ سُـوَل
 وما ضرَّ مَنْ ضيَّعتُ حقَّ وداده
 وفاءٌ إذا عَرَّ الوفاءُ يُقيلُ
 سلِّ المننَ اللائِي له هل جحدتُها
 وكيف إلى جحدِ النُّوَالِ سبيل
 وإنني وان كنتُ المسيءَ فإنه
 بإحسانه للقاصدين ووصول
 فكنُ لي شفيعًا في ارتحالي بكرة
 رضّى بشفيع منك لي وقوول
 أثابكمَا الرحمانُ عنها إقاله
 تُخفِّفُ أمرَ البينِ، فهو ثقيل
 وأبقاكمَا ربُّ الجلالِ لخلقهِ
 فما منكما إلا أعزُّ جليلُ

(الإحاطة في أخبار غرناطة - نصوص جديدة: 194 - 196)

(9)

وقال⁽¹⁾ يمدح سلطان تونس ويهديه كتاب التاريخ بعد أن أتمه:

[الكامل]

هَلْ غَيْرُ بَابِكَ لِلْغَرِيبِ مُؤَمَّلٌ
أَوْ عَنْ جَنَابِكَ لِلْأَمَانِيِّ مَعْدِلٌ
هِيَ هِمَّةٌ بَعَثْتَ إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى
عَزْمًا كَمَا شَحَذَ الْحُسَامَ الصَّيْقَلُ
مُتَبَوِّئًا الدُّنْيَا وَمُنْتَجِعُ الْمَنَى
وَالغَيْثُ حَيْثُ الْعَارِضُ الْمُتَهَلِّلُ
حَيْثُ الْقُصُورُ الزَّاهِرَاتُ مُنِيفَةٌ
تُعْنَى بِهَا زُهْرُ النَّجُومِ وَتَحْفِلُ
حَيْثُ الْخِيَامُ الْبَيْضُ يُرْفَعُ لِلْعَلَا
وَالْمَكْرَمَاتِ طِرَافُهَا الْمُتَهَدِّلُ
حَيْثُ الْجَمَى لِلْعِرْزِ فِي⁽²⁾ سَاحَاتِهِ
ظِلُّ أَفَاءَتِهِ الْوَشِيحِ الدُّبُلُ
حَيْثُ الْكِرَامُ يَنْوِبُ عَنْ نَارِ الْقِرَى
عَرُفُ الْكِبَاءِ بِحَيْهِمْ وَالْمَنْدَلُ

(1) وردت عشرة أبيات من القصيدة في «نفع الطيب».

(2) في نفع الطيب «دون مجاله».

حَيْثُ الرِّمَاحُ يَكَادُ يُورِقُ عُودُهَا
 مِمَّا تُعَلُّ مِنَ الدِّمَاءِ وَتُنْهَلُ
 حَيْثُ الْجِيَادُ أَمَلَّهِنَّ بَنُو الْوَعَى
 مِمَّا أَطَالُوا فِي الْمُغَارِ وَأَوْغَلُوا
 حَيْثُ الْوَجُوهُ الْغُرُّ قَنَعَهَا الْحَيَا
 وَالْبِشْرُ فِي صَفَحَاتِهَا⁽¹⁾ يَتَهَلَّلُ
 حَيْثُ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ وَالنَّفْرُ الْأَلَى
 عَزَّ الْجَوَارُ لَدَيْهِمْ وَالْمَنْزِلُ
 مِنْ شِيعَةِ الْمَهْدِيِّ بِلْ مِنْ شِيعَةِ التُّ
 تَوْحِيدِ جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ يُفَصِّلُ
 بِلْ شِيعَةِ الرَّحْمَنِ الْقِي حَبَّهْمُ
 فِي خَلْقِهِ فَسَمَوْا بِذَلِكَ وَفَضَّلُوا
 شَادُوا عَلَى التَّقْوَى مَبَانِي عَزَّهْمُ
 لِلَّهِ مَا شَادُوا بِذَلِكَ وَأَتَّلُوا
 قَوْمٌ أَبُوْحَفْصٍ⁽²⁾ أَبٌ لَهُمْ وَمَا
 أَدْرَاكَ وَالْفَارُوقُ⁽³⁾ جَدُّ أَوْلُ
 نَسَبٍ كَمَا اطَّرَدَتْ أَنْبِيْبُ الْقَنَا
 وَأَتَى عَلَى تَقْوِيْمِهِنَّ مُعَدَّلُ
 سَامٍ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ
 لِلْفَخْرِ تَاجٌ بِالْبُدُورِ مُكَلَّلُ

(1) في نفع الطيب: «فوق جبينها».

(2) أبو حفص: عمر بن عبد الله الصنهاجي، وإليه تنسب الدولة الحفصية.

(3) ذكر ابن خلدون أن نسب الحفصيين ينتهي إلى عمر بن الخطاب.

فَضَلَ الْأَنْبَاءَ حَدِيثَهُمْ وَقَدِيمَهُمْ
وَلَأَنْتَ إِنْ فَضَلُوا أَعَزُّ وَأَفْضَلُ
وَبَنَوْا عَلَى قُلَلِ النُّجُومِ وَوَطَّئُوا
وَبِنَاوِكَ الْعَالِيِ أَشَدُّ وَأَطْوَلُ

☆☆☆☆

وَلَقَدْ أَقُولُ لِخَائِضِ بَحْرِ الْفَلَاحِ
وَاللَّيْلِ مُزْبَدُ الْجَوَانِبِ أَلْيَلُ
مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدُّجَى لَا يَتَّقِي
تِيهَا وَذَابِلُهُ ذُبَالُ مُشْعَلُ
مُتَقَلِّبٍ فَوْقَ الرَّحَالِ كَأَنَّهُ
طَيْفٌ بِأَطْرَافِ الْمِهَادِ مُوَكَّلُ
يَبْغِي مَنَالَ الْفُوزِ مِنْ طُرُقِ الْغَنَى
وَيُرُودُ مُخَصَّبَهَا الَّذِي لَا يُمَجِّلُ
أَرْحَ الرُّكَّابِ فَقَدْ ظَفَرَتْ بِوَاهِبِ
يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعَمِينَ فَيُجْزِلُ
لِلَّهِ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ فِي النَّدَى
كَالرُوضِ حَيَّاهُ نَدِيٍّ مُخْضِلُ
هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامُنَا
فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَيْهِ الْمَوْئِلُ
هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ خَيْرُ خَلِيفَةِ
شَهِدَتْ لَهُ الشُّيْمُ الَّتِي لَا تُجْهَلُ
مُسْتَنْصَرٌ بِاللَّهِ فِي قَهْرِ الْعَدَا
وَعَلَى إِعَانَةِ رَبِّهِ مَتَوَكَّلُ

سَبَقَ الْمَلُوكَ إِلَى الْعِلَاءِ مَتَمَّهًا
لِلَّهِ مِنْكَ السَّابِقُ الْمَتَمَّهُلُ
فَلَأَنْتَ أَعْلَى الْمَالِكِينَ وَإِنْ غَدَا
يَتَسَابِقُونَ إِلَى الْعِلَاءِ وَأَكْمَلُ
قَائِسُ قَدِيمًا مِنْكُمْ بِقَدِيمِهِمْ
فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ لَا يُجْهَلُ
دَانُوا لِقَوْمِكُمْ بِأَقْوَمِ طَاعَةٍ
هِيَ عُرْوَةُ الدِّينِ الَّتِي لَا تُفْصَلُ
سَأَلُ تَلِمَسَانًا بِهَا وَزَنَاتَةً
وَمَرِيرِينَ قَبْلَهُمْ كَمَا قَدْ يُنْقَلُ
وَأَسْأَلُ بِأَنْدَلُسٍ مَدَائِنَ مُلْكِهَا
تُخْبِرُكَ حِينَ اسْتِيَأَسُوا وَاسْتَوْهَلُوا
وَاسْأَلُ بِذَا مُرَّاكَشًا وَقُصُورَهَا
وَلَقَدْ تُجِيبُ رَسُومَهَا مِنْ يَسْأَلُ

☆☆☆☆

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي نَعْتِهِ
مَلَأَ الْقُلُوبَ وَفَوْقَ مَا يُتَمَثَّلُ
لِلَّهِ مِنْكَ مُؤَيَّدٌ عَزَمَاتُهُ
تَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَضَاءُ الْمُرْسَلُ
جِئْتَ الزَّمَانَ بِحَيْثُ أَعْضَلَ خَطْبُهُ
فَانْفَتَرَ عَنْهُ وَهُوَ أَكْلَحُ أَعْصَلُ
وَالشَّمْلُ مِنْ أَبْنَائِهِ مُتَّصِدُّعٌ
وَجَمِي خِلَافَتِهِ مُضَاعٌ مُهْمَلُ

وَالْخَلْقُ قَدْ صَرَفُوا إِلَيْكَ قُلُوبَهُمْ
 وَرَجَّوْا صِلَاحَ الْحَالِ مِنْكَ وَأَمَّلُوا
 فَعَجِلْتَهُ لِمَا انْتُدِبْتَ لِأَمْرِهِ
 بِالْبَأْسِ وَالْعِزْمِ الَّذِي لَا يَمْهَلُ
 ذَلَّلْتَ مِنْهُ جَامِحًا لَا يَنْثَنِي
 سَهَّلْتَ وَعَرًّا كَادَ لَا يَتَسَهَّلُ
 وَأَلَنْتَ مِنْ شَرَسِ الْعُتَاةِ وَوَدَدْتَهُمْ
 عَنِ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي قَدْ حَلَّلُوا
 كَانَتْ لِمَصُولَةٍ صَوْلَةٌ وَلِقَوْمِهِ
 يَعْدُو دُوَيْبُ بِهَا وَتَسْطُو الْمَعْقِلُ⁽¹⁾
 وَمُهْلَهُلُ تُسَدِّي وَتُلْجِمُ فِي الَّتِي
 مَا أَحْكَمُوهَا بَعْدُ فَهِيَ مُهْلَهُلُ
 عَجَبَ الْأَنْعَامُ لِشَأْنِهِمْ بَادُونَ قَدْ
 قَذَفْتَ بِحَيْثُهُمُ الْمَطْيِي الذُّلُّ
 رَفَعُوا الْقِيَابَ عَلَى الْعِمَادِ وَعِنْدَهَا الـ
 جُرْدُ السَّلَاحِ وَالرِّمَاحُ الْعُسَلُ
 فِي كُلِّ ظَامِي التُّرْبِ مَتَّقِدِ الْحَصَى
 تَهْوِي لِجُجَّتِهِ الظَّمَاءُ فَتَنْهَلُ
 جِنَّ شَرَابِهِمُ السَّرَابُ وَرَزَقَهُمْ
 رُمُحٌ يَرُوحُ بِهِ الْكَمِيُّ وَمُنْصَلُ
 حَيٌّ حُلُولُ بِالْعِرَاءِ وَدُونِهِمْ
 قُذْفُ النَّوَى إِنْ يِظْعَنُوا أَوْ يُقْبَلُوا

(1) المراد بصولة وذؤيب: زعيمان من زعماء القبائل التي ثارت على السلطان.

كانوا يروعون الملوك بما بدوا
وغدت تُرْفَقُه بالنعيم وتُخْضَلُ
فبِدوت لا تلوي على دَعِيَّةٍ ولا
تأوي إلى ظلل القصور تُهدُّلُ
طورًا يُصافحك الهجيرُ وتارةً
فيه بخَفَّاق البنودِ تُظَلِّلُ
وإذا تُعاطي ضُمَّرًا يومَ الوغى
كأسَ النجيعِ فبالصهيل تُعلِّلُ
مُخشوشينًا في العزِّ معتملاً له
في مثل هذا يحسُن المستعملُ
تفري حشا البيداءِ لا يسري بها
ركبٌ ولا يهوي إليها جحفلُ
وتجرُّ أذيالَ الكتائبِ فوقها
تختال في السُّمرِ الطَّوالِ وترفلُ
تَرميهمُ منها بكلِّ مُدَجِّجٍ
شاكي السِّلاحِ إذا استعار الأعرلُ
ويكل أسمرَ غصنُه مُتَأَوِّدُ
ويكل أبيضَ شطُّه مُتهدِّلُ
حتى تفرِّقَ ذلك الجمعُ الألى
عصفت بهم ريحُ الجِلالِ فزُلزلوا
ثمَّ استملتَهُمُ بأنعمك التي
خضعوا لعِزِّكَ بعدها وتذَلَّلوا

ونزعتَ من أهل الجريد غوايةً
 كانت بهم أبداً تجدُّ وتهزلُّ
 خرَّبتَ من بُنيانها ما شيدوا
 وقطعتَ من أسبابها ما أصلوا
 ونظمتَ من أمصاره وثغوره
 للملك عقداً بالفتوح يُفصلُّ
 فسددتَ مُطالع النِّفاقِ وأنتَ لا
 تنبو ظُباك ولا العزيمة تنكُلُّ
 بشكيمةٍ مرهوبةٍ وسياسةٍ
 تجري كما يجري فُراتٌ سلسلُّ
 عذبَ الزمانُ لها ولذَّ مذاقُه
 من بعد ما قد مرَّ منه الحنظلُّ
 فضوى الأنامُ لعزِّ أروعِ مالكِ
 سهلُ الخليفةِ ماجدٌ متفضِّلُّ
 وتطابقتَ فيك القلوبُ على الرضى
 سيَّان منها الطفلُ والمتكهلُّ
 يا مالكا وسِعَ الزمانَ وأهله
 دعةً وأمناً فوق ما قد أمَّلوا
 فالأرضُ لا يُخشى بها غولٌ ولا
 يَعدو بساحتها الهزيرُ المشبِلُّ
 والسُّفُرُ يجتابون كلَّ تنوفةٍ
 سِرْبَ القطا ما راعهنَّ الأجدلُّ

سبحانَ من بَعُلاك قد أحيا المنى
وأعاد حَلِي الجيد وهو معطلُ
سبحانَ من بَهْداك أوضَحَ للورى
قصدَ السبيلِ فأبصرَ المتأملُ
فكأنما الدنيا عروسٌ تُجتَلَى
فَتَميس في حُللِ الجمال وترفُلُ
وكانَ مُطبقةَ البلادِ بعدلهِ
عادت فسيحًا ليس فيه مَجْهَلُ
وكانَ أنوار الكواكبِ ضوعفت
من نورِ غُرَّتِه التي هي أجملُ
وكانَما رُفِعَ الحجابِ لناظرِ
فرأى الحقيقةَ في الذي يتخيَّلُ
مولاي غاضتِ فكرتي وتبَلَّدت
مِنِّي الطباعُ فكلُّ شيءٍ مُشْكلُ
تسمُو إلى دَرْكِ الحقائقِ هِمَّتِي
فأصدُّ عن إدراكهنَّ وأعزَلُ
وأجدُّ ليلي في امتراءِ قريحتي
وتعودُ غَوْرًا بينما تسترسلُ
فأبيتُ يعتلجُ الكلامُ بخاطري
والنَّظْمُ يشردُ والقوافي تُجفِلُ
من بُعدِ حولِ أنتقيه ولم يكنُ
في الشَّعرِ حولي يُعاب ويُهْمَلُ
فأصونه عن أهله مُتوارياً
أن لا يضمُّهمُ وشِعْري مَحْفِلُ

وَهِيَ الْبِضَاعَةُ فِي الْقَبُولِ نَفَاقُهَا
 سَيِّانٌ فِيهَا الْفَحْلُ وَالْمَتَطَفُّلُ
 وَبِنَاتٌ فِكْرِي إِنْ أَتَتْكَ كَلِيلَةٌ
 مَرَّهَاءَ تَخْطُرُ فِي الْقُصُورِ وَتَخْطُلُ
 فَلَهَا الْفَخَارُ إِذَا مَنَحْتَ قَبُولَهَا
 وَأَنَا عَلَى ذَاكَ الْبَلِيغِ الْمِقْوَلُ
 وَإِلَيْكَ مِنْ سِيرِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ
 عِبْرًا يَدِينُ بِفَضْلِهَا مَنْ يَعْدِلُ
 صُحُفًا تُتْرَجَمُ عَنْ أَحَادِيثِ الْأَلَى
 غَبَرُوا فَتُجْمِلُ عَنْهُمْ وَتُفْصَلُ
 تُبْدِي التَّبَابِعَ وَالْعَمَالِقُ سِرَّهَا
 وَثَمُودُ قَبْلَهُمْ وَعَادُ الْأَوَّلُ
 وَالْقَائِمُونَ بِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ
 مُضِرٍّ وَبَرِيرِهِمْ إِذَا مَا حُضِّلُوا
 لَخَّصْتُ كُتُبَ الْأَوْلِيَيْنِ لَجْمَعِهَا
 وَأَتَيْتُ أَوْلَهَا بِمَا قَدْ أَعْفَلُوا
 وَأَلَنْتُ حُوشِيَّ الْكَلَامِ كَأَنَّمَا
 شُرِّدُ اللَّغَاتِ بِهَا لِإِنُّطَقِي نَزَّلُ
 أَهْدَيْتُ مِنْهُ إِلَى عِلَاقِ جَوَاهِرًا
 مَكْنُونَةً وَكَوَاكِبًا لَا تَأْفُلُ
 وَجَعَلْتُهُ لِحِوَانِ مَلِكِكَ مَفْخَرًا
 يَبْأَى⁽¹⁾ النَّدِيُّ بِهِ وَيَزْهَوُ الْمَحْفَلُ

(1) يَبْأَى: يَفْخَرُ.

والله ما أسرفنت فيما قلته
شيئاً ولا الإسراف مما يجمل
ولأنت أرسخ في المعارف رتبة
من أن يموه عنده متطقل
فملاك كل فضيلة وحقيقة
بيديك تعرف وضعها إن بدلوا
والحق عندك في الأمور مُقدّم
أبدًا فماذا يدعيه المُبطل
والله أعطاك التي لا فوقها
فاحكم بما ترضى فأنت الأعدل
أبقاك ربك للعباد تربهم
فالله يخلقهم ورعيك يكفل

(التعريف بابن خلدون: 233 - 241)

(10)

وكتب⁽¹⁾ إلى الجوباني⁽²⁾ يعتذر فيها إلى سلطان مصر الظاهر برقوق⁽³⁾
من الفتوى التي أجبر عليها:

[الخفيف]

سيّدي والظنونُ فيك جَميأه
وأَيّاديك بالأمانِي كَفِيأه
لا تَحُلْ عن جَمِيل رأيك إنّي
مالِي اليومَ غيرُ رأيك حِيلَه
واصطنعني كما اصطنعتَ بإسدا
ءِ يَدٍ من شفاعَةٍ أو وَسِيلَه
لا تُضِغْني فليستْ منك مُضِيغًا
ذَمَّةَ الحَبِّ والأَيّادي الجميلَه
وأجزني فالخطبُ عَضُّ بنَائِي
هـ وأجزني إلى جِمَائِي خُيولَه
وَلَوْ أَنِّي دَعَا بنَصْرِي دَاعٍ
كنتَ لي خَيْرَ مَعَشَرٍ وفَصِيلَه

(1) ورد النصّ في «التعريف بابن خلدون» فقط.

(2) الطنبغا عبدالله الجوباني: أحد كبار أمراء المماليك، تنقل في الولايات، قتل سنة 792 هـ (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: 238/1).

(3) الظاهر برقوق (738 - 801 هـ) أول من ملك من مماليك الشركاسة، جلبه أحد تجار الرقيق إلى الشام فخدم نائب السلطنة، وانتقل إلى مصر وتقدم في دولة المنصور بن قلاوون فولي أتابكية العساكر، ثم انتزع السلطنة من آخر ملوك بني قلاوون سنة 784 هـ وتلقب بالملك الظاهر واستمر بالحكم حتى وفاته. (الأعلام: 48/2).

أَنَّهُ أَمْرِي إِلَى الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ (م)
أُمُورَ الدُّنْيَا لَهُ مَكْفُولَةٌ
وَأَرَادَ فِي مُلْكِهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى
رَى فَوَلَّاهُ ثُمَّ كَانَ مُدِيْلَهُ
أَشْهَدْتُهُ عَنَايَةَ اللَّهِ فِي التَّمَمِ
حَيْصٍ أَنْ كَانَ عَوْنَهُ وَمُنِيْلَهُ
الْعَزِيْزُ السُّلْطَانُ وَالْمَلِكُ الظُّلْمُ
هَرُ فخرُ الدنْيَا وَعِزُّ الْقَبِيْلَةِ
وَمُجْبِرُ الْإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ
كَادَ زَلْزَالَ بِأَسْبِهِ أَنْ يُزِيْلَهُ
وَمُدِيْلُ الْعَدُوِّ بِالطُّغْنَةِ النَّجْدِ
إِلَاءِ تَفْئِرِي مَاذِيْلَهُ وَنُصُولَهُ
وَشَكُورٌ لِأَنْعَمَ اللَّهُ يُفْنِي
فِي رِضَاهِ غُدُوهُ وَأُصِيْلَهُ
وَتَلَطَّفُ فِي وَصْفِ حَالِي وَشَكْوَى
خَلَّتِي يَا صَفِيْلَهُ وَخَلِيْلَهُ
قَلُّ لَهْ وَالْمِقَالُ يُكْرَمُ مِنْ مِثْلِهِ
لَكَ فِي مَحْفَلِ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَهُ
يَا خُونِدَ الْمُلُوكِ يَا مَعْدَلَ الدَّهْرِ
رِ إِذَا عَدَلَ الزَّمَانُ فَصُولَهُ
لَا تُقْصِرْ فِي جَبْرِ كَسْرِي فَمَا زِلْتُ
تُ أَرْجِيْكَ لِأَيْدِي الطَّوِيْلَةِ

أنا جازُّ لكم منعتم جماه
ونهجتم إلى المعالي سبيلَه
وغريبٌ أنستموه على الوحد
شنة والحزن بالرضا والسُّهولَه
وجمعتم من شمله فقضى الله (م)
فراقًا وما قضى مأمولَه
غاله الدهرُ في البنين وفي الأه
بل وما كان ظنُّه أن يغولَه
ورمته النوى فقيداً قد اجتأ
حت عليه فروعَه وأصولَه
فجذبتكم بضبعه وأنلتُم
كلُّ ما شاءت العُلا أن تُنيلَه
ورفعتم من قدره قبل أن ينشأ
كوإيكم عيائه وخمولَه
وفرضتم له حقيقةً ودُّ
حاش لله أن تُرى مُستحيلَه
همَّة ما عرفتها لسواكم
وأنا من خبرت دَهري وجيلَه
والعِدا نمقوا أحاديثَ إفيك
كلُّها في طرائق معلولَه
رؤجوا في شائي غرائب زور
نصبوها لأمرهم أحبولَه

ورمّوا بالذي أرادوا من البُهْ
 تان ظنّاً بأنّها مقبوله
 زعموا أنني أتيتُ من الأقب
 سِوالِ ما لا يُظنُّ بي أن أقولَه
 كيف لي أغمط الحقوق وأنّي
 شكرُ نِعماكم عليّ الجزيلَه؟
 كيف لي أنكر الأيادي التي تُعد
 رفها الشمسُ والظلال الظليلَه؟
 إن يكنّ ذا فقد برئتُ من الله (م)
 تعالَى وخننتُ جهراً رسولَه
 طوّقونا أمرَ الكتابِ فكانت
 لِقِداحِ الظنونِ فينا مُجِيلَه
 لا وَرَبِّ الكتابِ أنزله الله (م)
 على قلبِ مَنْ وعى تنزيلَه
 ما رضينا بذاك فعلاً ولا جِئْ
 ناه طوعاً ولا اقتفيناً دليلَه
 إنما سامنا الكتابَ ظلومٌ
 لا يُرَجَّى دِفَاعُهِ بالحيَلَه
 سَخَطُ نَاجِزٍ وَجِالِمٍ بَطِيءٍ
 وسِلاحٌ لِّلِوَحْزِ فينا صقيَلَه
 ودَعَوني ولسْتُ من منصبِ الحُكْمِ
 مِ ولا سَاحِباً لَدَيْهِم نِيولَه

غَيْرَ أَنِّي وَشَىٰ بِذِكْرِي وَأَشِي
 يَتَقَصَّىٰ أَوْتَارَهُ وَذُحُولَهُ
 فَكُتِبْنَا مُعَولِّينَ عَلَىٰ جِلْدِ
 مِمْكَ تَمْحُو الإِصْصَارَ عَنَا التُّقْيِلَهُ
 مَا أَشْرْنَا بِهِ لِزَيْدٍ وَلَا عَمُ
 رُو وَلَا عِيَّنُوا لَنَا تَفْصِيْلَهُ
 إِنَّمَا يَذْكُرُونَ عَمَّنْ وَفِيْمَنْ
 مُبْهَمَاتٍ أَحْكَامُهَا مَنْقُولَهُ
 وَيُظَنُّونَ أَنَّ ذَاكَ عَلَىٰ مَا
 أَضْمَرُوا مِنْ شِنَاعَةٍ أَوْ رَذِيْلَهُ
 وَهُوَ ظَنُّ عَنِ الصَّوَابِ بَعِيْدُهُ
 وَظَلَامٌ لَمْ يُحْسِنُوا تَأْوِيْلَهُ
 وَجَنَابُ السُّلْطَانِ نَزَّهَهُ اللهُ (م)
 عَنِ الْعَابِ بِالْهَدْيِ وَالْفَضِيْلَهُ
 وَأَجَلُّ الْمَلُوكِ قَدْرًا صَفْوُهُ
 يَرْتَجِي ذَنْبَ دَهْرِهِ لِئُقْيِلَهُ
 فَاقْبِلُوا الْعِذْرَ إِنَّمَا الْيَوْمَ نَرْجُو
 بِحَيَاةِ السُّلْطَانِ مِنْكُمْ قَبُولَهُ
 وَأَعِيْنُوا عَلَى الزَّمَانِ غَرِيْبًا
 يَشْتَكِي جِدْبَ عَيْشِهِ وَمُحْوَلَهُ
 جَارِكُمْ ضَيْفِكُمْ نَزِيْلُ جِمَاكُمْ
 لَا يُضْيِعُ الْكَرِيْمُ يَوْمًا نَزِيْلَهُ

جَدُّدُوا عِنْدَهُ رَسُومَ رِضَاكُمْ
فِرْسُومُ الْكِرَامِ غَيْرُ مُحْيِيَّهِ
دَارِكُوهُ بِرَحْمَةٍ فَلَقَدْ أُمَّ
سِتُّ عَقُودُ اصْطِبَارِهِ مَحْلُولِهِ
وَانْحَلُّوهُ جَبْرًا فَلَيْسَ يُرْجَى
غَيْرَ إِحْسَانِكُمْ لَهْذِي النَّحْيَةِ
يَا حَمِيدَ الْأَثَارِ فِي الدَّهْرِ يَا أَلْ
طَنْبُغَا يَا رَوْضَ الْعَلَا وَمَقِيلَهُ
كَيْفَ بِالْخَانِقَاهِ يُنْقَلُ عَنِي
لَا لِذَنْبٍ أَوْ جُنْحَةٍ مَنقُولِهِ
بَلْ تَقَلَّدْتُمُهَا شَغُورًا بِمِرْسُومِ
مِ شَرِيفٍ وَخِلْعَةٍ مَسْدُولِهِ
وَلَقَدْ كُنْتُ أَمَلًا لِسَوَاهَا
وَسَوَاهَا بِوَعْدِهِ أَنْ يُنْيَلَهُ
وَتَوَثَّقْتُ لِلزَّمَانِ عَلَيْهَا
بِعَقُودٍ مَا خَلَّتْهَا مُحْلُولِهِ
أَبْلَغُنْ قِصَّتِي فَمَثَلُكَ مَنْ يَقْدُ
صَدَّ فَعَلَ الْحَسَنَى بِمَنْ يَنْتَمِي لَهُ
وَاعْتَمُوا مِنْ مَثُوبَتِي وَدَعَائِي
قُرْبَةً عِنْدَ رَبِّكُمْ مَقْبُولِهِ
وَاصْحَابِ الْعِزِّ ظَافِرًا بِالْأَمَانِي
وَاتْرِكِ الْعَصْبَةَ الْعِدَا مَفْلُولِهِ

واعتمِلْ في سعادة الملك الخُلّا
هَرِ أَنْ تَمَحَوَ الأَدَى وتُزِيلَهُ
وتُعِيدَ الدنيا لأحسن شملٍ
حين تُضحى بسعده مشمولَهُ
واطلبِ النصرَ مِن سعاده يَصُ
حَبُّكَ دَأْبًا في الظُّعن والحيلولَهُ
وارتقبِ ما يُحلُّه بالأعادي
في جُمادى أو زِدْ عليه قليلَهُ
وخذوه فألاً بحسن قَبولِ
صدقَ الله في الزمان مَقولَهُ
فلقد كان يُحسن الفأل عند الـ
مصطفى دائماً ويرضى جميلَهُ

(التعريف بابن خلدون: 331 - 335)

(11)

وقال⁽¹⁾ مهنتاً سلطان الأندلس الغني بالله بولادة ولده سعد:

[الرمل]

أَيُّ نَجْمٍ لَاحَ فِي أُنْفُقِ الْمَعَالِي
أَيُّ شَمْسٍ أَطْلَعَتْ، أَيُّ هِلَالٍ
أَيُّ سَهْمٍ فِي حُلَى السَّيْفِ الْيَمَانِي
يَزْدَرِي بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ الطُّوَالِ
أَبْسَعِدِ⁽²⁾ وَضَحَتْ فِي آلِ سَعْدِ
أَيَّةٌ مِنْهُ تَحَرَّتْ⁽³⁾ بِالْكَمَالِ
أَمْ هِدْوَهُ صَهَوَاتِ الْخَيْلِ لَا
يَبْغِي دَرَعَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ⁽⁴⁾
وَاجْعَلُوا الصَّارِمَ مِنْ تَقْلِيدِهِ
إِنهَا الْعَوْدَةُ فِي يَوْمِ النَّزَالِ
وَشَّحْوِهِ بِالْمَعَالِي نَاشِئًا
إِنهَا سَيِّمَاطُكُمْ فِي كُلِّ حَالِ

...

(1) وردت القصيدة في «الإحاطة في أخبار غرناطة - نصوص جديدة» فقط.

(2) في الأصل: «أبي سعد» ولا تلتزم مع الوزن والسياق.

(3) في الأصل: «تحركت» وأظنها تحريفًا.

(4) في الشطر الثاني خلل في الوزن..

أبلغ الأنصارَ أن قد أنجبوا^(١)
من يُعادي في هواهم ويُوالي
أُل نصرٍ (...)^(٢) عزمكمُ فهمُ
عادةً للنصر في كل مجال
جَدِّدُوا عزمكمُ^(٣) بعد دُروسٍ
وأعادوا عزمكم بعد الزَّيَال
(...)^(٤) اللُّهُ ظَلَّ العَدْلُ في الـ
حَآلِقٍ مِنْهُمْ عن يَمِينٍ وشَمَالٍ
لكأني بك يا بنَ يوسفَ^(٥)
قد مَحَا سَيْفُكَ أَثَارَ الضَّلَالِ
قد أزرَتِ الخَيْلَ أوطانَ العدا
نُشْرًا تَتَرَى رِجَالًا في رِجَالِ
تَحْمِلُ الأَبْطَالَ لا يَدْرُونَ ما
غَمْرَةُ المَوْتِ ولا يَوْمُ النُّزَالِ
وشننت الغارة الشُّعواءَ والنُّ
نَحْصَرَ^(٦) نزالٍ
فطواغيثٌ لدى الأوثانِ صرعى
وديَارٌ من صدَى الكفرِ خَوَالِ

(1) في الأصل: «انجتموا» وهو تحريف.

(2) نقص في الأصل.

(3) في الأصل: «عزم» وهو تحريف ولا يلتئم مع الوزن والسياق.

(4) نقص في الأصل.

(5) في الشطر الأول نقص.

(6) نقص في الأصل.

ونواقيسُ من الألعانِ عُطُلُ
وصِفاحُ من دمِ الشُّركِ هِوَالِ
وهنيئاً أنها بشرى هِلا
لِ طلعِ اليومِ بآفاقِ المقالِ
زادك اللهُ به من كلِّ عزِّ
وحباك السعدَ في كلِّ مَنالِ
(الإحاطة في أخبار غرناطة، نصوص جديدة: 197 - 198)

(12)

وأنشد⁽¹⁾ سلطان الأندلس الغني بالله ليلة المولد الكريم سنة 765هـ:

[الطويل]

أبى الطيفُ أن يعتادَ إلا توهُماً
فمن لي بأن ألقى الخيالَ المسلماً
وقد كنتُ أستهديه لو كان نافعِي
وأستمطر الأجنفانَ لو تنقع الظُّما
ولكنْ خيالٌ كاذبٌ وطَماعةٌ
تُعَلِّلُ قلباً بالأمانِي مُتِيماً
أيا صاحِبِي نجواي والحُبُّ لوعةٌ
تُبيحُ بشكواها الضميرَ المكتُماً
خُذا لفؤادي العهدَ من نَفَسِ الصُّبا
وظبِي النُّقا والبانِ من أجرعِ الحمى
ألا صنعَ الشوقُ الذي هو صانعُ
فحبي مقيمٌ أقصرَ الشوقُ أو سما
وإنِّي لَيدعوني السلُّو تَعَلُّلاً
وتنهاني الأشجانُ أن أتقدِّماً
لمن يَمُنُّ أقفرنَ إلا هواتفاً
تُردُّ في أطلالهنَّ التَّرنُّما

(1) ورد النص في «التعريف بابن خلدون» فقط.

عرفتُ بها سِيما الهوى وتَنكَّرتُ
فمَجَّت على آياتها مُتوسِّمًا
وذو الشؤقِ يعتاد الرُّبوعَ دوارسًا
ويعرف آثارَ الديارِ توهُّمًا
تأوَّيَني والليلُ بيني وبينه
وميضُ بأطرافِ الثَّنايا تَضرُّمًا
أجدُّ لي العهدَ القديمَ كأنه
أشار بتذكُّارِ العهودِ فأفهمًا
عجبتُ لمرتاعِ الجوانحِ خافقِ
بكيتُ له خلفَ الدجى وتبسُّمًا
وبنتُ أروِّيَه كؤوسَ مدامعي
وبات يعاطيني الحديثُ عن الحمى
وصافحتُه عن رسمِ دارِ بذي الغضا
لبستُ بها ثوبَ الشبيبةِ مُعلَمًا
لعهدي بها تُدني الظُّباءِ أوانسًا
وتُطلع في أفاقها الغيدَ أنجمًا
أجِنُّ إليها حيثُ سار بي الهوى
وأنجدَ رحلي في البلادِ وأتُهما

(التعريف بابن خلدون: 89 - 90)

(13)

وقال⁽¹⁾ مادحًا سلطان الأندلس الغني بالله ليلة المولد النبوي:

[البيط]

حَيِّ الْمَعَاهِدَ كَانَتْ قَبْلُ تُحْيِيَنِي
بِوَكَفِ الدَّمْعِ يُرْوِيهَا وَيُظْمِيَنِي
إِنَّ الْأَلَى نَزَحَتْ دَارِي وَدَارُهُمْ
تَحَمَّلُوا الْقَلْبَ فِي آثَارِهِمْ دُونِي
وَقَفْتُ أَنْشُدُ صَبْرًا ضَاعَ بَعْدَهُمْ
فِيهِمْ وَأَسْأَلُ رِبْعًا⁽²⁾ لَا يُنَاجِيَنِي
أُمْتَلُ الرُّبْعَ مِنْ شَوْقٍ فَالْتُمُهُ
وَكَيْفَ وَالْفِكْرُ يُدْنِيهِ وَيُقْصِيَنِي
[و] يَنْهَبُ الْوَجْدُ مِنِّي كُلَّ لَوْلُوَّةٍ
مَا زَالَ قَلْبِي عَلَيْهَا غَيْرَ مَأْمُونٍ
سَقَتُ جُفُونِي مَغَانِي الرُّبْعِ بَعْدَهُمْ
فَالدَّمْعُ وَقَفَ عَلَى أَطْلَالِهِ الْجُونِ
قَدْ كَانَ لِلْقَلْبِ عَن دَاعِي الْهَوَى شُغْلٌ
لَوْ أَنَّ قَلْبِي إِلَى السُّلْوَانِ يَدْعُونِي

(1) وردت القصيدة غير كاملة في كل من: «الإحاطة»، و«نفع الطيب» و«التعريف بابن خلدون» و«جدوة الاقتباس».

(2) في المصادر الأخرى: وردت «رسمًا».

أَحْبَابِنَا هَلْ لِعَهْدِ الْوَصْلِ مُدَكِّرٌ
مِنْكُمْ وَهَلْ نَسَمَةٌ عَنْكُمْ تُحْيِيْنِي؟
مَا لِي وَلِلطَّيْفِ لَا يَعْتَادُ زَائِرُهُ
وَلِلنَّسِيمِ عَلِيلاً لَا يُدَاوِيْنِي
يَا أَهْلَ نَجْدٍ وَمَا نَجْدٌ وَسَاكِنُهَا
حُسْنًا سِوَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَالْعَيْنِ
أَعِنْدَكُمْ أَنْبِي مَا مَرَّ نِزْكَرُكُمْ
إِلَّا ائْتَنَيْتُ كَأَنَّ الرِّاحَ تُثْنِيْنِي
أَضْبُو إِلَى الْبَرْقِ مِنْ تِلْقَاءِ أَرْضِكُمْ
شَوْقًا وَلَوْلَاكُمْ مَا كَانَ يُصْبِيْنِي
يَا نَارِحًا وَالنَّيْ تُدْنِيهِ مِنْ خَلْدِي
حَتَّى لِأَحْسَبُهُ قُرْبًا يُنَاجِيْنِي
أَسْأَلِي هَوَاكَ فَوَادِي⁽¹⁾ عَنْ سِوَاكَ وَمَا
سِوَاكَ يَوْمًا بِحَالٍ عَنْكَ يَسْلِينِي⁽²⁾
تُرَى اللَّيَالِي أَنْسَتِكَ ادِّكَارِي يَا
مَنْ لَمْ يَكُنْ نِزْكَرُهُ الْأَيَّامُ تُنْسِيْنِي
يَا حَادِي الظَّلْعِ تَهْوِي فِي أَعْنَتِهَا
مِفْتَونَةٌ بَيْنَ تَرْجِيْعٍ وَتَرْنِينِ
دَعَهَا وَضِلَّتْهَا لَا تَهْدِي ضِلَّتْهَا
فَنَفْحَةُ السِّدَارِ تَهْدِيهَا وَتَهْدِيْنِي

(1) في الشطر الأول لم تذكر كلمة «فَوَادِي» واستكملت من المصادر الأخرى.

(2) وردت في المصدر «ينسيني» وفي المصادر الأخرى «يسليني».

لهفي لنفسي وما لهفي بمُغنيةٍ
 أُطيعها في أمانِها وتُعصيني
 تسعى إلى زخرف الدنيا على عجلٍ
 وتُرجئ السعي في الأخرى إلى حين
 أبعد مرَّ الثلاثين التي ذهبت
 أُولي الشبابَ بإحساني وتحسيني
 أضعتُ منها نفيسًا ما وردتُ به
 إلا سرابَ غرورٍ لا يُرويني
 واحسرتي من أمانِ كُلِّها خُدعُ
 تَريش عني ومَرُّ الدهرِ يبريني
 شكوى إلى الله من نفسٍ تُحَمِّلني
 مَتتني الغرورِ وإن اقصرَّت تُغريني
 حسبي اعتصامي بحبي في النبيِّ فَمَن
 يَذخره يظفرُ بأجرٍ غيرِ ممنون
 نورِ الهدى مصطفى الأكوانِ غايتها
 حكمِ الرسالة في بعثِ وتكوين
 [و] نشدة الكونِ سرِّ الحقِ مُظهره
 بُشرى التَّبئين في رمزٍ وتعيين
 المجتبي لهدى الأنام من قِدامِ⁽¹⁾
 وأدمُ بين هذا الماءِ والطين
 خَرَّت لمولده الأوثانُ خاشعةً
 وانقضَّت الشَّهبُ⁽²⁾ رجماً للشياطين

(1) في الأصل: «به قدمًا» ويختل الوزن في الشطر.

(2) في المصدر: «وانقضَّت على» و«على» زائدة.

وضَاءَ بِالشَّامِ مِنْ أَلَاءِ عُرَّتِهِ
 قُصُورُ بُصْرَى بِإِيضَاحٍ وَتَبْيِينِ
 هَذَا وَكَمْ آيَةً جَاءَتْ بِبِعْثَتِهِ
 وَمِعْجَزَاتٍ جَلِيَّاتِ الْبِرَاهِينِ
 يَا سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُقْتَدَى بِهِمْ
 وَشَافِعَ الْخَلْقِ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالدِّينِ
 مِنْ لِي بِهَا عَزْمَةٌ تَسْطُو عَلَى كَسَلِي
 وَمِنْ جِمَاهِ وَإِنْ أُقْصِيَتْ تُدْنِينِي
 أَرْجُو ابْنَ نَصْرِ لِنَصْرِي كَلِمَا امْتَنَعْتَ
 مَوْلَى الْمُلُوكِ وَسُلْطَانَ السُّلْطَانِ
 مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي الْحَجَّاجِ ثَامِنَ أُمَّ
 لَكَ الْهُدَى وَالنُّدَى الشَّمَّ الْعَرَانِينَ
 سَمَخَ الْخَلِيقَةِ مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ قَدْ
 أَوْلَى الْوَرَى كُلَّ تَأْمِينٍ وَتَهْدِينِ
 الْجَوْدُ دُونَ نَدَاهِ غَيْرُ مَطْرِدٍ
 وَالنُّجُحُ عِنْدَ سِوَاهِ غَيْرُ مَضْمُونِ
 وَافْتَ خَلَاْفَتُكَ الْغُرَاءُ - لَا عُذِمْتُ -
 بِكُلِّ عَدْلِ وَإِحْسَانٍ وَتَسْكِينِ
 دَجْتَ سَعُودِكَ لَيْلَ الْخَطْبِ حِينَ دَجَا
 وَبَيَّيْنَا الصَّبْحُ مِنْهَا أَيُّ تَبْيِينِ
 أَقَمْتَ لِلْمُلْكَ مَا يَعْتَادُ مِنْ شَرْفِ
 ضَخْمٍ وَقَمَمْتَ بِمَفْرُوضٍ وَمَسْنُونِ

فالمكُّ منبسطٌ والدينُ مغتبطٌ
حاز الكفيلين من عزٍّ وتحصين
لله ليلتُك الغرَّاء إن لها
فخرًا يُطرِّز أوراق الدواوين
أحييت مجتهدًا دينَ النبيِّ بها
ومجدَ آبائك الغرِّ الميامين
كفأك فخرًا ومجدًا أن حبَّهم
شهيْدُ صدقِ على الإيمان والدين
يا مصنعاً شيَّدت منه السعودُ جمى
لا يطرق الدهرُ مَبناه بتوهين
صرخُ يحار لديه الطَّرفُ مفتتناً
فيما يروقك من شكلٍ وتلوين
بُعدًا لإيوان كسرى إن مَشوْرَكَ⁽¹⁾ السن
سامي لأعظمُ من تلك الأواوين
ودعُ دمشق ومغناها فقصرُك ذا
أشهى إلى القلب من أبواب جَبرون⁽²⁾
يا دولةَ النصر والتأييد ألحفها
رأى ابنِ نصرٍ بتأييدٍ وتمكين
أعدت أيامها الأولى باندلسٍ
تُزري جمالاً على أيام هارون

(1) المَشوْر: المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم.

(2) باب جبرون: أحد أبواب دمشق.

مَن مَبْلُغٌ جِيرَةً بِالغُورِ قَدْ جَهِلُوا^(١)
 وَدِّيَ وَضَاعَ حِمَاهِمَ إِذْ أَضَاعُونِي
 أَنِّي أُوَيْتُ مِنَ الْعَلِيَا إِلَى حَرَمٍ
 كَانَتْ^(٢) مَغَانِيهِ بِالْبِشْرَى تُحْيِينِي
 وَأَنْنِي ظَاعِنًا لَمْ أَلْقَ بَعْدَهُمْ
 دَهْرًا أَشَاكِي وَلَا خَصْمًا يُشَاكِينِي
 لَا كَالْتِي أَخْفَرْتَ عَهْدِي لِيَالِي إِذْ
 قَلْبِي يَقْلِبُ^(٣) بَيْنَ الْخَوْفِ وَالهُونِ
 سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَامِي الَّتِي ظَفَرْتَ
 يَدَايَ مِنْهَا بِحِظٍّ غَيْرِ مَغْبُونِ
 أَرْتَادُ مِنْهَا مَلِيًّا لَا يُمَاطِلُنِي
 وَعَدًّا وَأَرْجُو كَرِيمًا لَا يُعْنِيَنِي
 وَهَاكَ غُرًّا^(٤) قَوَافٍ طِيَّهَا حَكْمٌ
 مِثْلُ الْأَزَاهِرِ فِي طَيِّ الرِّيَاحِينَ
 تَلُوحُ إِنْ جُلَيْتَ دُرًّا وَإِنْ تُلَيْتَ
 تُثْنِي عَلَيكَ بِأَنْفَاسِ الْبَسَاتِينِ
 عَانَيْتُ مِنْهَا بِجَهْدِي كُلِّ شَارِدَةٍ
 لَوْلَا سُعُودُكَ مَا كَادَتْ تُوَاتِينِي

(1) في المصادر الأخرى: «من مبلغ عني الصبح الألى تركوا».

(2) في المصادر الأخرى «كادت».

(3) في المصادر الأخرى: «أقلب الطرف».

(4) في المصادر الأخرى: «وهاك منها».

يُمانع الفكرُ عنها ما تَقَسَّمه
من كل حُزنٍ بِطَيِّ الصدرِ مكنون
لكنْ بسعدك ذلَّت لي شوارِدُها
فَرُضْتُ منها بتحبيرٍ وتزيين
بقيتَ دهرَكَ في أَمِنٍ وفي دَعِي
ودام ملكُكَ في نصرٍ وتمكين
(نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: 297/3 - 299)

المصادر والمراجع

- ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري: محمد عبدالله عنان، دار مختار، القاهرة، 1991م:
- ابن خلدون، لمحة عن حياته وآثاره: بلقاسم بن عمار الشابي، المطبعة العصرية، تونس (د.ت).
- ابن خلدون: عزيز العظمة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت (ط1) 2000م.
- أعمال مهرجان ابن خلدون: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1962م:
- إغاثة الأمة بكشف الغمة: تقي الدين المقرئ، تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، (ط1) 2007م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة (ج3): لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة (ط4) 2001م: 497/3.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، نصوص جديدة: لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: بوزياني الدراجي، دار الأمل، الجزائر.
- الأدب بتونس في العهد الحفصي: أحمد الطويلي، مركز النشر الجامعي، تونس (ط1) 1947م.
- رفع الإصر عن قضاة مصر: ابن حجر العسقلاني، مكتبة الخانجي، القاهرة (ط1) 1998م.
- ابن خلدون في المدرسة العادلية، عبد القادر المغربي، مطابع قوزما، دمشق 1928م.
- منطق ابن خلدون في ضوء حياته وشخصيته: علي الوردي، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم (ط1) 1997م.
- أعمال الملتقى الدولي الأول لابن خلدون: المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1983م.

- البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط امبراطوريات: مكتبة الإسكندرية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 2007م.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت (ط1) 1998م: 1/235.
- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً: عبدالرحمن ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- السلوك لمعرفة دول الملوك (ج4): تقي الدين المقرئ، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2007م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي، دار الجيل، بيروت (ط1) 1992م: 4/145.
- الفقر والإحسان في مصر: آدم صبرة، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م: 238.
- المجمع المؤسس للمعجم المفهرس: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، 1992م: 3/157.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (ج7)، ابن تغري بردي، تحقيق: محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1993م: 7/205.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي، تعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت (ط1) 1992م: 13/112.
- إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2002م.
- تاريخ ابن قاضي شهبه (ج4): ابن قاضي شهبه، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق 1997م.

- تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت (ط7) 1997م: 586/6.
- تاريخ العرب السياسي في الأندلس: سعدون نصرالله، دار النهضة العربية، بيروت (ط1) 1998م: 353.
- تاريخ دولة المماليك في مصر: وليم موير، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مطبعة المعارف بمصر، (ط1) 1924:
- جذوة الاقتباس في من حلّ من الأعلام مدينة فاس: أحمد بن القاضي المكتاسي، دار المنصور، الرياض 1973م: 410/2.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة (ط1) 1967م: 462/1.
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ساطع الحصري، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت (ط3) 1967م:
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون: ساطع الحصري، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت (ط3) 1967م.
- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: تقي الدين المقرئ، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1) 2002م: 383/2.
- عجائب المقدور في نوائب تيمور: ابن عربشاه، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط1) 1986م: 252.
- عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب: محمد النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت (ط1) 1996م: 335/1.
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد: طه حسين، ترجمة عبدالله عنان، المركز الأكاديمي، للأبحاث، بيروت (ط1) 2016م.

- قيام دولة المماليك الثانية: حكيم أمين عبدالسيد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: 1966م:
- مؤلفات ابن خلدون: عبدالرحمن بدوي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، دار المعارف بمصر، 1962:
- مقدمة ابن خلدون: عبدالرحمن ابن خلدون، تحقيق: درويش الحويدي، المكتبة العصرية، صيدا، 2001م.
- موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين: المؤسسة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل، بيروت (ط1) 2005م: 407/8.
- نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان: أبو الوليد ابن الأحمر، تحقيق: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط1) 1976م: 297.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (ج3): لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: السعيدية فاغنية، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989م
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (ج8): أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (ط1) 1988م.

فهرس الشعر

ص	عدد الأبيات	البحر	القافية	مطلع القصيدة
قافية الباء				
73	107	الطويل	أُغَالِبُ	1 - عَلَى أَيِّ حَالٍ لِلْيَالِي أُعَاتِبُ
84	53	الكامل	وَنَحِيبِي	2 - أَسْرَفَنَ فِي هَجْرِي وَفِي تَعْذِيبِي
90	30	الطويل	تَثُوبُ	3 - صَا الشُّوقُ لَوْلَا عِبْرَةٌ وَنَحِيبُ
قافية الحاء				
92	5	الكامل	طِلَاحًا	4 - هَذَا الدِّيَارُ فَحَيَّهِنَّ صَبَاحًا
قافية الدال				
93	37	الكامل	الوَجْدِ	5 - قَدَحْتَ يَدَ الْأَشْوَاقِ مِنْ زَنْدِي
قافية السين				
97	35	الكامل	بُوسِ	6 - ضَحِكْتُ وَجُوهَ الدَّهْرِ بَعْدَ عُبُوسِ
قافية العين				
101	21	الكامل	سَمِيعِ	7 - يَا سَيِّدَ الْفَضْلَاءِ دَعْوَةَ مُشْفِقِ
قافية اللام				
104	47	الطويل	مُنَيْلُ	8 - هَنِيئًا بِصُومٍ لَا عِدَاهُ قَبُولُ
108	101	الكامل	مَعْدِلُ	9 - هَلْ غَيْرُ بَابِكَ لِلْغَرِيبِ مُؤَمِّلُ

ص	عدد الأبيات	البحر	القافية	مطلع القصيدة
118	67	الخفيف	كَفَيْلَه	10 - سيدي والظنونُ فيك جَمِيلَه
125	18	الرمل	هـلال	11 - أي نجم لاح في أفق المعالي
قافية الميم				
128	17	الطويل	المسَلِّما	12 - أبي الطيف أن يعتاد إلا توهُما
قافية النون				
130	61	البسيط	ويُظْمِني	13 - حيِّ المعاهدَ كانتَ قَبْلُ تُحْيِيني

المحتوى

- التصدير.....3
- صورة ابن خلدون في مرآته.....7
- صورة ابن خلدون في مرآة الآخرين.....27
- التعريف بالأعلام الواردة.....41
- في ترجمة ابن خلدون.....41
- نظرة في قصائد المدح لدى ابن خلدون.....46
- القصائد.....71
- المصادر والمراجع.....137
- فهرس الشعر.....141
- المحتوى.....143
